AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

Bot. Gard. 1945

892.78
R138shA
C.1

مصطفى صادق الرافعي

السحاب الأحمر

Cat. Nov. 1945

59628

القاهرة
مطبعة الاستقامة
١٩٤٢

ضبطه وصححه وحقق أصوله

محمد سعيد العربان

ملتزم الطبع والنشر

المكتبة التجارية الكبرى : شارع محمد على — مصر

لصاحبها : مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الطبعة الثانية

محمد سعيد العريان

«لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا . . . ؛ ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف ما في الخصومة ؛ إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس ، متحابان تباغضا ... »

مصطفى صادق الرافعي

... وهذا هو الفصل الثاني من قصة الحب بين الرافعي وفلانة ، ليست قصةَ الحادثة ، بل قصة القلبِ الذي أحبَّ ، فزُيِّنَ له الحبُّ ، فتمنَّى ؛ ثم كان من أمره ما كان مما فصلتُ مجملَهُ في غير هذا المكان [1] ؛ فجاء هذا الكتابُ وكتابان من قبله ومن بعده [2] ، يصف فيها من حاله ومن خبره ويكشف عن ذات نفسه !

---

(١) حياة الرافعي ص ٧٣ - ١١٩

(٢) رسائل الأحزان ، وأوراق الورد

كانت « رسائل الأحزان » هى أول ما بين الرافعى وصاحبته بعد القطيعة ؛ كَتَبَها وأنفذها إليها بين دفتى كتاب ، لتقرأه فتعلم من حاله ومن خبره ما يريد أن تعلم ؛ ثم كَتَبَ هذا الكتاب ...

تُرى ماذا كتبتْ إليه صاحبتُه بعد ما قرأت « رسائل الأحزان » فأثارتْ نفسه بعد هَدْأَتها وردَّتْه من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدرى ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التى أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسختْ كان كلامها فى حاجة إلى أن يُغسَل بالماء والصابون ، وهيهات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلِّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلِّمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها ! » ؟

مَن لى بأن أعرف ما كان وقْع رسائل الأحزان فى نفسها وما ردَّتْ به ؟

إنه يتحدث فى السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذى لا يغسله الماءُ والصابون ، والنجمةِ الهاوية ، وخداع النظر فى الحب ، وفساد الرأى فى الهوى ، وطيش القلب فى الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة فى تاريخ هذا الحب ؛ فلست أدعى المعرفة ؛ ولقد كنتُ مع الرافعى مرة فى مكتبه وبيننا هذا الكتاب يقرأ لى بعض فصوله ؛ فاستمهلتُه عند فقرةٍ مما يقرأ ليجيبنى عن سؤال

يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فيّ طويلا ، ثم سكت ، وسبحت خواطره إلى عالَم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ؛ ثم قال : « أرأيت القلم الذى تراءى لى السحابُ الأحمر فى نصابه بين عينىّ والمصباح ؟ » ثم دسّ يده فى درج المكتب فأخرجه ودفعه إلىّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألستَ ترى سحابا يترقرق بالدم كأن قلبا جريحا ينزف ؟ ... فى شعاعة هذا النور تراءتْ لى هذه الخواطر التى تقرؤها فى السحاب الأحمر ... »

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

✡ ✡ ✡

أحسب أن الرافعى حين أنشأ السحاب الأحمر ، كان فى حالة عصبية قلقة لست أعرف مَأتاها ومَرَدّها ؛ ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها فى شيء من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الرافعى رسائل الأحزان ليكون رسالته إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه . ولست أشك فى أن صاحبته حين تأدّتْ إليها رسائله قد فهمتْ ما يعنيه وعرفتْ ذات صدره ؛ وأحسبها — وهى الأديبة الشاعرة — قد سَرّها أن تكون هى فلَكَ الوحى لما فى رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها

أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحيا وشعراً وحكمة .. ؟

إن كان هذا هو جوابها على رسائل الأحزان فما أراها قد بلغتْ به إلا أن هاجتْ كبرياءه وأثارت نفسه ، فكتب هذا الكتاب ولكن لغير ما أرادتْه وما قصدت إليه ...

✡ ✡ ✡

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولوم المرأة ... !

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلبا وقع فى أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء فمه : إننى أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حَزَبه أمرُه إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأى فى بلواه ، كذلك فزع الرافعى فى السحاب الأحمر ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره ؛ فهذا صديقه الشيخ على صاحب « المساكين » وهذا صفيُّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعى ، وذلك أستاذه ومثله العالى فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهذه أم ضلّ ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونه جميعا حديثهم عن الحب فى رأى

العين وفى رأى القلب وفى رأى العقل ، ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعا إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبةَ لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لا تكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه !

على أن هذا الكتاب ليس كله خالصا لصاحبته (فلانة) وإن يكن من وحيها ؛ ذلك لأن نسقه العجيب ومحاولةَ الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد نَهَجَ له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته .

✡ ✡ ✡

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث المؤلف عن فتاة « عرفها قديما فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصفُ إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبته التى أملتْ عليه « حديث القمر » ؛ وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصْفَه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ، فتسأل نفسك : أىُّ شىء ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفْهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ... »

« إن من المرأة ما يُحَبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكْرَه إلى أن يلتحق بالكفر ... »

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يُشْبَع منه بلا أكل ... »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها بما كَتَب ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى فتسمعه يقول : « تتم آمالنا حين لا نؤمل ! » فما تشك أن هناك رسالةً إليها ، رسالةً يمليها الحبُّ المغيظ المحنَق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها ليست شيئاً فى نفسه ، وأنه قد تمَّتْ آماله واستراحت نفسه فليس لها فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء . ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوبٍ قاس عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون يدبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعان حبُّه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من

لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عَدَّتْ مبغضيها لا تَعُدُّ إلا الذين أَحبُّوها . . . ! » فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أحبك ياأشأم النساء ! » ؟

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قولَه :

يامَن على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن الظلام الذى يحلوك ياقمرُ له صباح متى تدركْه أخفاكا !

✡✡✡

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى أَجَلِه وزوجتُه التى تحبه تشيِّعه بنظراتها الجازعة ، فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين أىَّ خاطرة فى الحب ألهمتْه هذا الفصلَ البديع ، وكأنك تسمعه يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق إذ يتحدث عن هذين الزوجين اللذين فرق بينهما الموتُ الموقوت !

✡✡✡

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لايريد أن يفصح عنه ؛ وإنه لسبب مما كان بينه وبين صاحبته : أفتُراه يشير به إلى شىء من أسباب القطيعة ؟

✡✡✡

وفى الفصل السادس يتحدث عن حب الأم فى قصة والدة ضلَّ ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما ؛ فيوازن بين حُبّ وحُب ، وعاطفة وعاطفة ؛ وينتهى إلى أن يقول :

« وهكذا الرجل : أغواه الشيطان فى السماء بثمرة ، فنسى الله حيناً ؛ ويغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى ، فينسى معها الأم أحياناً ! »

✡✡✡

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ؛ وليس هو إنسانية الإنسان ، وليس هو كلّ مافى الحياة من لذة ومتاع — فى كلام يُجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ؛ فتستمع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه .

إن الرافعى بكبريائه وخُلقه ودينه واعتدادِه بنفسه لم يُخْلَق للحب ! ولكنه أحب ؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعا دائما بين طبيعتِه التى هو بها هو ، وفطرتِه التى هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر .

✡✡✡

وفى هـذا الـكتاب تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ، وإنه ليُشعرك برأيه هذا مقدارَ مافعل به الحب وما قَلَّ من إرادته ؛ فتراه يؤمن بأن الإنسان فى دنياه ليس له اختيارٌ فيما يعمل ، ولـكنه قضاءٌ مقدور عليه منذ الأزل لاطاقة له على الفكاك منه . وإنه على ذلك لموقنٌ بأن لله حكمة فيما قضى وقدَّر وإن دقتْ حكمتُه على الأفهام :

« ألا ياماء البحر ، ماأنت على أرض من الملح ؛ فبماذا أصبحت زعافاً لاتحلو ولا تُساغ ولا تشرَب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولـكنك ياماء البحر ذابتْ فيك الحِكمةُ المِلْحة ...! »

✡✡✡

قلت فيما صدَّرتُ به كتاب « رسائل الأحزان » : إنه عند أكثر قراء العربية شىءٌ من البيان المصنوع تَكلفه كاتبُه يحاول به أن يستحدث فنا فى العربية لم يوفَّق إلى تجويده . . . لأنه بقية قصة لم تُنْشَر معه ... ...

وأقول هنا : إن السحاب الأحمر كتاب كامل ؛ احذفْ منه فصلا أو فصلين فى أوله ، وشيئا من فضول القول فى سائره ، تجدْ فنًّا فى العربية لايقدر عليه إلا الرافعى ؛ فجرِّدْه من قصته أو انسبْه إليها ، فإنك واجدٌ فيه أدبا يستحق الخلود ، وبيانا

يُزْهَى على البيان ، وشعراً وحكمة مازال الأدباء يدورون عليهما حتى وجدوهما فى أدب الرافعى !

✡ ✡ ✡

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبتُه من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفّع والدلال ؛ وفى السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره ، فما لها عنده إلا البغضُ والإهمال ، وما له عندها إلا اللهفةُ على ماكان من أيامه . أفتُراه هنا قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى !

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويورّث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ماقصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

ويلى على متـــدلّل ماتنقضى عنى فنونُهْ !
كيف السلوُّ وفى فؤا دى لاتفارقنى عيونُهْ ؟

محمد سعيد العريان

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الأُولَى

للمؤلف

لما كتبتُ « رسائل الأحزان » فى فلسفة الجمال والحب ، كنت فى تدبيره والرأيِ فيه كمن يُؤَرِّخ عَهْدًا من شبابه بعد أن رَقَّتْ سِنُّه (١) وذهب يقينُه من الدنيا ولم يبق إلا ظنُّه ، فهو يكتب والكلام يَحِنُّ لَدَيْه ، والقلم يِنُّ فى يديه ، وكل وصف جاء به من الشباب قال رحمة الله عليه !... وكنت أتعلق بأطراف اللغة التى فرَّتْ من الحياة معانيها ، وذهب نورُها وظلامُها فى أيامها ولياليها ، فكان قلمى هو الذى يكتبها ولكنَّ قلبى هو الذى يُمْلِيهَا .

لغة الأحلام التى تعبِّرُ عن الحقائق على نحو ماوقعتْ يوما لاعلى نحو ماتقع كل يوم ، فهى تترجم للحياة فى زمن من العمر تاريخَ هذه الحياة نفسِها فى زمن آخر ، وتُرْجع الإنسانَ كله لبقيَّته الباقية ، وتأتى فى الكلام لغير جِدال كما تأتى الأجْوِبَةُ القاطعة على أسئلتها

وهى لغةُ الماضى التى تحملُ ماحَمَلْتَ عليها لأنها صافية

---

(١) شاخ وهرم ، ومتى بلغ الانسان هذه السن كانت لذات الدنيا كلها ظنونا فى نفسه ، وبعد عن يقينها وحقائقها بعده عن شبابه وقواه !

كالحق ، منزّهة عن الريب كالواقع ؛ فإذا وصفتَ بها الخير كانت كالمرآة المجلوة أشرق فيها وجه جميل فملأ صفاءَها جمالا وفتنة ؛ وإذا صوّرتَ بها الشرّ كانت كالمرآة ووجه الزنجى : يملؤها سواداً ولكنه لا يَطْمِس على شعاعها ، وتضيف إلى سوادِه لَمَعَانَ نورها مادام فيها !

* * *

كتبته بلغة الأحلام ؛ والأحلامُ هذه إنما هى بعضُ ما مات منا أو ما مات لنا ؛ فإن استحال رجوعنا فى هذا العمر عَوداً على الماضى فهى رجوع الماضى إلينا ؛ ومن ثَمّ كان فى لغتها شىء ظاهرٌ من رَوْعة الخلق ، وكانت لها معَان كأنها راجعة من سَفَر بعيد إلى شوق طال به الصبر .

كتبت كتابة قال الغافلون إنى أتكلف لها خَيالا ورواية ، وقال العاشقون إنها كلامُ قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام : إنه هو فى كلامه !

ولقد كنتُ من نفسى يومئذ كمن لو ضَرَبَه الحب بِقشة لجرحه جرحا يَدْمَى [1] وكنت أكتب عن ساحرة تبسمُ حتى لتظنُّ أنها لم تُوتَ وجها تعبسُ به ، ثم تكون مع ذلك شرّ ماهى كائنة من حيث لا تظنُّ أنت بها إلا الذى هو خيرٌ وأهْدَى !

(١) دمى الجرح يدمى (كرضى يرضى) : إذا سال دمه

وكنتُ فى ذلك الكتاب شاعراً ؛ وحُب الشاعر لايخلو من الوزن ... ؛ وكنتُ متفلسفا ؛ وهيهات إن أصبتَ الحب أيها الفيلسوفُ إلا فى امرأة معقَّدة يؤلفها الله تأليفا من العُسْر بين فهمك ومعانيها ؛ فلا جرَمَ كان الكتابُ فى نوع من الحب المتألم لا يكون مثلُه إلا بين اثنين مَسَحَ الله يده على وجه أحدهما ثم مَسَحَ يده على قلب الآخر ثم تراءَيا بعدُ فما لَبِثَ أن أشرق الأثرُ الإلهىُّ على الأثر ، ووقع القضاء فى الحب على القدَر !

ألا إن كل باب يُفْتَح ويُغلق بمفتاح واحدٍ هو يُغلقه وهو يفتحه ، إلا بابَ القلب الإنسانى ؛ فقد جعل الله له مِفتاحين : أحدهما يُغلقه ثم لا يغلقه سواه ، وهو مفتاح اللذات ؛ والآخر يفتحه ثم لا يفتحه غيره ، وهو الألم !

✡ ✡ ✡

كنت أستوحى « الرسائل » من تلك النفس التى طارت بى طيْرَتُها البطىءَ وقوعُها ؛ فإنى لأستَعِرُ بها فكراً[1] وأشْتَعِل منها خيالا ، وكنت أرى الفصول تَخْلُص فى يدى حين أكتبها كما تخلص سبائك الذهب بعناصرها لا بالصناعة ؛ وكان هذا القلم كالحديد إذا أُحْمِىَ عليه : ليست يدٌ لمسته من أيدى المعانى إلا

(١) يستعر : يلتهب ، كأنه كله شعلة فكر

وضع فيها سِمَةَ النار ؛ ثم جاء الكتاب وما أكاد أصدّق أن الزمن مرَّ به ، وتم قبل أن يُتِمَّ القمر دَوْرَةَ شهر واحد [١] ، فنبهنى ذلك إلى أن أستوفى الكلامَ فى الحب استمداداً من أرواح أخرى ، فوضعتُ هذا « السحاب الأحمر » [٢]

وقد استوحيتُه من أرواحٍ فيها الحبيبُ والبغيض والصديق والمظلوم والظالمُ لنفسه ، ومَن عقله قلبُه ، ومن حبُّهُ منفعته ؛ وفيها أضعفُ ما عرفتُ من العقول وأقواها ؛ فمن هذه السماء تَوَكَّفْتُ هذا السحاب [٣] ؛ وإنى لأشهدُ أنى فى بعض فصوله كنتُ أحامى عن الحب أن يُنْتَقَصَ [٤] ، فأُدير الكلامَ على ذلك فيلتوى ، ثم أراه لا ينقاد ولا يُتَابِعُ إلا على خلاف ما أريد ؛ فإذا أخذتُ فى المذهب الذى يَعِنُّ لى اتفاقاً وعَرَضاً ، [٥] تحدَّرَ الكلام تحدُّرَ الدمع من حيث لا يَملك أحدٌ أن يُفيضَه أو يَكفَّه ،

---

(١) كتبت رسائل الأحزان فى نيف وعشرين يوماً ، وكتب حديث القمر فى أربعين ، وكتب هذا السحاب فى شهرين ؛ وهى الكتب الثلاثة التى جعلناها للجمال والحب ، وكلها مستوحاة .

قلت : ومثلها أوراق الورد ، وقد أخرجه بعد هذا الكتاب بست سنين ، ولكل كتاب من هذه الكتب الأربعة سبب وحادثة ؛ وقد استوفينا الحديث عن كل منها وعن أسبابها فى كتابنا « حياة الرافعي »

(٢) تعرف سبب هذه التسمية فى الفصل الأول

(٣) التوكف : الاستمطار

(٤) أى يعاب ويثلب

(٥) عن يعن : إذا عرض

لأنه عند أسبابه الباطنة . وفى فصل « الشيخ على » خاصَّةً كانت روح هذا الرجل الطبيعى كأنها هى التى تكتب ، وكان مَرِيداً على طبعه وخُلقه [١] فما ملكتُ معه محاماةً ولا دَفعاً . وفى فصل « الشيخ محمد عبده » كنت أشعر كأنى مُرْتَق فى صَعْدَاءَ مَطْلَبُها طويل بعيدٌ [٢] ، فلا أخطو خطوة إلا مُدافِعا جاذبيةَ الأرض وشاعرا بأنى أحمل نفسى حَمْلا ؛ وكنتُ كالذى يطأ على أضراس الجبل الصخرىّ وأسنانه مُتَّئِدا حَذِرا أن يَزِلَّ فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة ... ولا ينفعه فى الصخر وشُموخه وتعاليه أنه كان فى عريض السهل عدَّاءً لا يُلْحق !

* * *

من الحب رحمةٌ مُهْداةٌ ؛ فإذا كنتَ مع الله كانت كل أفكارك صورا روحانية ؛ فأنت كالملَك : هو فى الأرض ما هو فى السماء . ومن الحب نِقْمَةٌ مُسَلَّطَةٌ ؛ فإذا كنت مع الشيطان كانت كلُّ أفكارك صورا حيوانية ، فأنت كهذا المُتَجَهِّم الطيَّاش [٣] الذى لو نظر فى كل مرائى الدنيا ما رأى فى جميعها غيرَ وجه القرد ، لأنه القرد ... !

---

(١) المريد هو من عنا وطغى ، ولا يقال إلا فى الأخلاق والطباع ، أما فى غيرها فارد

(٢) الصعداء : الطريق العالية يصعد فيها ، أو الغاية البعيدة يصعد إليها

(٣) القبيح الوجه ، الخفيف العقل

والناس فى هذا الحب أصناف : فواحد يجاهد زَلّاتٍ قد وقعتْ ، وهو المحب الآثِم ؛ وآخر يجاهد شهواتٍ تَهُمُّ أن تقع ، وهو المحب الممتَحَن : وثالث أمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد خَطَراتِ الفكر ، وهو المحب لِيُحِبَّ فقط ؛ ورابع كالقرابة والصديق : عجز الناس أن يجدوا فى لغاتهم لفظاً يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء إليها فى المعنى ، وهو الحب . وعلى الثالث وحده بنيتُ « رسائل الأحزان » ، وعلى بعض الرأى فى الباقيات كَسَرْتُ هذا الكتاب

* * *

مَنْ للمحبِّ ومن يُعِينُهْ والحب أهنؤه حَزِينُهْ !
أنا ما عرفتُ سوى قسا وته فقولوا كيف لِينُهْ ؟
إن يُقْضَ دَيْنُ ذَوِى الهوى فأنا الذى بَقِيَتْ دُيُونُهْ
قلبى هو الذهبُ الكريـ ـمُ فلا يُفارِقُه رَنِينهْ
قلبى هو الألماسُ : يُعْـ ـرَفُ من أشعَّتِهِ ثمينُهْ
قلبى يُحِب وإنما أخلاقه فيه ودِينُهْ

* * *

يامن يُحِب حبيبَهُ وبِظنِّه أمسى يُهِينُهْ
وتَعِف منه ظواهرٌ لكنه نَجِسٌ يَقِينُه
كالقبر غطّته الزهو رُ وتحته عفِنٌ دَفِينُه

ماذا يكونُ هواكَ لو ... كل الذى تهوَى يكونُه ؟
دَعْ فى ظنونك مَوْضِعاً ... إن الحبيب له ظنونُه
وخذِ الجميلَ لكى تَزِ ... ينَ الحسنَ فيه بما يزينُه
إن تَنْقَلِب لِصَّ العَفَا ... فِ لمن تحِب فمَنْ أمِينُه ؟
ما لذةُ القلب المدَلَّـ ... ـهِ لا يطولُ به حَنِينُه ؟
ما لذة العـــقل المُحـ ... ـب ولم يُجَنَّنْه جنونُه ؟
الحب سَجْـــدَة عابدٍ : ... ما أرضُـهُ إلا جَبينُه
الحب أفْقٌ طـاهرٌ ... ما إن يُدَنِّسُهُ خَئُونُه
أفْقُ المـــلائكِ نفسُهُ ... فى البَدْءِ كانَ له لَعِينه (١)

* * *

وَيلى على متَـــدَلِّلٍ ... ما تَنقضى عنى فنونه
كيف السُّلُوُّ وفى فؤا ... دى لا تُفارِقنى عُيونُه ؟

مصطفى صادق الرافعى

---

(١) هو إبليس لعين السماء وطريد الملائكة

كلمة

كانت دُرَّتان متجاورتين فى حِلْية على صدر حسناء ؛ وكلتاهما يتيمة إلا من أختها [1] ، تَمُجُّ ذلك الشعاعَ النادر الذى جاءه الحسن من كونه ضوءاً لم يُولَد من شمس ولا من قمر ، ولكن من ظُلمات البحر ؛ فتناجتا يوماً ، وكانت الجميلة قد استوفت كلَّ زينتها وحملت الدرَّتين على صدرها كأنهما عَيْنا قلبها الثمين ؛ فقالت إحداهما للأخرى وهى تشير إلى هذه الفتَّانة : انظرى انظرى ، ما أحسنَ لؤلؤتَنا ... !

صارت اللؤلؤة فى هذا المنطق الشعرىِّ هى امرأةَ الأعماقِ المظلمة ، وعادت المرأةُ الحسناء لؤلؤةَ الأعماقِ السماوية المضيئة فلا شىء يريد أن يكون كما هو فى نفسه ، إذ لا يزال موضعُ الفَصْلِ من حكمة الله خفيًّا ، لا يُرى بل يُتَوهَّم ، ولا يُستَيقَن بل يظَن ؛ وكان خفاءُ هذه الحكمة فى سماواتها إيجاداً للخيال فى الإنسان حتى لا يظلَّ أبداً فى حيوانيته ؛ ولكن هذا الخيال نفسَه كثيراً ما أضاف إلى الإنسان حيوانيةً أخرى

ولو كُشِفَ لك عن الحقيقة لرأيتَ أقبحَ ما فى كل شىء أن لا يبرحَ أبداً محبوساً فى حقيقة لا يُجاوِزها ؛ ومن ثَمَّ خفَّف الله

---

(١) أى لا يشبهها فى الدر إلا أختها

عن الإنسان فأودع فيه قوة التخيل يستريح إليها من الحقائق ؛ فإذا ضجر أهلُ الخيال من الخيال ، لم يُصلحهم إلا الحب ، فهو وحـــده ناموس التطور للقوة المتخيلة ، وان تجد فى الأشياء العجيبة أعجبَ منه ؛ حتى كأنه أمٌ تَلِد . فالمرأة هى تلد الإنسان ولكن حبها يلد النابغة

✡ ✡ ✡

وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب فى نفسه ، بل لأنه متصل من الإنسان برُوعِه [1] أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه فإن دَهِش الروع أو تحيَّر العقل أو اشتهى الهوى أو تمكن المَطْمَع من النفس ، فهذه هى الألوان الأربعة التى تصور منها الطبيعة الإنسانية كلَّ معانى التعجب . والذى هو أعجب من جميعها أن الطبيعة لاتحتاج إلى جميعها فى تصوير شىء إلا واحداً ، هو تصوير الحب الصحيح فى قلب إنسان

فهذا الحب ليس حقيقة واحدة عجيبة ، بل هو أربع حقائق داخَل بعضُها بعضاً فلا يتميَّز لونٌ منها من لون منها . وما حقيقةُ الحب الصحيح إلا امتزاج نفسين بكل ما فيهما من الحقائق ، حتى قال بعضهم : لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما

---

(١) الروع : الخاطر والقلب

أن يقول للآخر : يا أنا[١] ؛ ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنفَ مافى الخصومة ؛ إذ هو تقاتلُ روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبرُ خَصيمَيْن فى عالم النفس ، مُتَحابَّان تَبَاغَضا !

وللحب العجيب جنسٌ من النساء عجيب خُلِقْنَ جواسيس على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها ، وقلَّما تجسَّست الواحدة منهن إلا لتفضح للدنيا أسرارَ روحٍ عظيمة ؛ وهـــذا الجنس تُهَيِّئُهُ الطبيعةُ تَهيئةَ المادةِ السحرية ، وتولد المرأة منه مرتين ؛ فإذا هى انحدرت إلى الدنيا طفلةً جعلتْ تأخذ فى دمها الجذَّابِ من شعاع الشمس يتوَهَّج ، ومن نور القمر يتندى[٢] ، وذهبت تنمو فى ظاهرها نموًّا وفى باطنها نموا غـيره ، حتى إذا بلغت مَبْلَغها وانبعثت مِلْءَ شبابها ، آنَ لها أن تُولَدَ الثانيةَ ، فوُلِدَتْ فى قلب رجل !

والعجيب أنها فى الولادة الأولى يكون أولُ وجودها هو أولَ وجودها ؛ أما فى الثانية فذلك أولُ فَنائها ؛ لأن المرأة متى حلتْ من قلب الرجل محـلاً ، جعـل يُفنيها معنى فى معنى حتى

---

(١) يريد اتحادهما فى الميل والهوى والحياة والخضوع ، كأنهما تبادلا نفسيهما ففى كل منهما انتقلت فى الآخر !

(٢) يترطب ، والتوهج : توقد النار ونحوها

تفرغ ، فلا يبقى منها إلا ذكرى زمنٍ مضى ... !

وكل امرأة من هذا الجنس هى مُعْجِزَةٌ عقلية مادامت مخبوءةً فى الشعاع السماوى من جمالها ، ومادام هذا الشعاعُ يفعل فعلَه الذى عرفه الناس أوضحَ ما عرفوه فى أديانهم وعقائدهم ، وفيما أنزلوه منزلةَ الأديان والعقائد

وآية مِصداقِ هذا الإعجاز [1] فى المرأة الساحرة المحبوبة ذلك النوعَ من الحب ـ أنه بَيْنَا يكون مُحبُّها رَزِينَ الطبع وازِنَ الرأى [2] كالجبل الراسخ الوَطْأَة ، إذا هو من سخافة رأيه فى بعض أهواء الحب ونَزَعاته كأنه جبلٌ يطير بألف جَناح وقد ملأ الخوافقَ بين السماء والأرض أوهاماً سحرية !

وهنا مُعضِلة الحب التى لا حيلة فى فهمها ولا فى تقريبها إلى الفهم ، وهى تثبت أن العاشق يُعطَى فى ناحيةِ خيالِه قِبَلَ الناس جميعاً ، ولكنه يُنتَقَص من ناحية عقله مع حبيبته وحدها ؛ فهما سِحْرانِ تَظاهَرا [3]

---

(١) أى برهانه ، تقول : مصداق الأمر كذا ، وآية مصداقه كذا

(٢) عاقل وقور راجح الفكر

(٣) أى تعاونا

ولا يُشبِه تلك المعجزة إلا أن ترى إنساناً يقوم على ساحل البحر المِلْح فيلقى فيه رِطْلا سكَّراً ، ثم يتذوَّق البحر فإذا هو فى مذاقه وفى رأيه وفى حكمه شرابٌ سائغ ، كأنما ألقى الرجلُ فيه وزن كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ الحلو ... ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك !

الفصل الأول

القمر الطالع

فى يدى الآن هذا القلمُ الذى أكتب به ، وهو سنّ قائمةٌ فى نِصاب [1] من الزجاج أحمرَ صافٍ يَشِفُّ عن دَاخِلِه ؛ فإذا طاف به النورُ أشَعَّ فيه [2] وانصبغ بلونه فرمى على إصْبَعى ظلا مجروحاً [3] يريك الجلدَ كأنما جُرْحُه من فوقه لامن تحته

فإذا رَاوَحتُهُ يدى [4] وقلَّبْته أناملى ، رأيتُ له بَرِيقاً يستطير فيه كأنه شُعْلَةٌ من اللهب حبستْها مُعجزةٌ فى عُودٍ من الثلج

فإذا استعرضتُهُ بين العين وبين الضوء الساطع ، رأيت منه ياقوتةً حمراءَ قـــد آفترَّ فيها نَبْعٌ كالفَمِ الحلو يتنفس على قلبى الحزين بابتسامات تأتى إلىَّ وفيها ألوانُ شفاهها الوردية !

فإنى لَجَالسٌ ذات مرة فى جَوف الليـل أكتب على ضوء الكهرباء ، إذ طارت فيه نظرةٌ من نظراتى ، وكان بإزاء الشعيلة [5] :

---

(١) السن : الريشة ، والنصاب : اليد التى تمسكها

(٢) أظهر شعاعه فيه

(٣) استعير له الجرح لأنه أحمر يترقرق كالدم

(٤) داورته وقلبته

(٥) هى فتيلة السراج المشعلة ، سميناها خيوط النور المنبثقة فى المصباح الكهربائى وما تجرى فيه ، ترجمة لكلمة (Duill)

فرأيت فى خِلَاله من انعكاس الضوء شُمَيْسَةً صغيرة لم أر قطُّ أحسنَ منها حسناً ، كأنها سَبِيكةٌ تحترق وتتناثر ضَباباً من بخار الذهب ؛ فمددتُ النظر فإذا أنا بتلك الشُّمَيْسَةِ كأنها إحدى عذارى الجنة انغمستْ فى غدير صافٍ فحوَّلها جمالُها ، فانقلب من معنى الماء إلى معانى الجمال المستَحِى ، فاحمرَّ كأنه لون خدٍّ مُوَرَّد !

وراعنى ماأبصرتُ ، فاستأنيتُ لحظة ، ثم رفعت طرفى إلى مَدار هـذا الكوكب ، فجعل يرمى بمثل شَقَائق البرق [1] تلمع واحدة لواحدة ، ثم انقلب يتضرَّم كالتنُّور المُسْتَعِر ، ثم عاد لُجَّة من « السحاب الأحمر » يموج بعضُها فى بعض كالحب المتوهِّج يملأ فراغَ قلب كبير ؛ فاختَلَجَ الذى هو فى صدرى ، وحَضَرتنى [2] حاضرةٌ من الذِّكرى لم تكد تعرض للفكر حتى انفلق السحاب عن وجهٍ فاتن كالقمر الطالع ، وكان متمثِّلا فى نفسى مُذْ أبصرتُ تلك الشميسة ، فكأنما رأى من السحاب مرآة فانطبع فيها ؛ وما تَلَبَّثَ إلا يسيراً ثم اختفى

وغُصْتُ فى هذه النفس أفكر فيما رأيت وأنا أُمسِكُ على قلبى أن يطير ، وإذا « السحاب الأحمر » يُمطر علىَّ مطرة من الخواطر والكلمات يتلاحق منها طرَف بعـدَ طرَف ، وتُقبِل

---

(١) قطع البرق ، جمع شقيقة

(٢) خطرت ببالى ، والذى هو فى الصدر : القلب

طائفة وراء طائفة ؛ كأن متكلما يتحدث بها فى نفسى ، أو كأنه وحىٌ يُوحَى من مَلَك الجمال ؛ فأسرعتُ أدوِّنها وأحصيها تحت عينَىَ تلك الصورةِ الجميلة المشْرِقة علىّ ، حتى امتلأَ البياضُ سواداً ، واستفاضت روحُ الحبر الأسود بالهم على صُدوع القلب وعلى شِعابِه [١] .

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السحاب يَعرِضُ لى صُوَراً أعرفها ، فإذا مَثَّلَها فاستوحيتُها الفِكرةَ سَحَّ علىّ الخواطرَ من روحها ، فأقبلتْ كالمطر يُفْرَغُ إفراغا دَفْعَة من غير تَلبُّث [٢]

✡✡✡

رأيت وجه فتاة عرفتها قديماً فى رَبْوة من (لُبنان) ينتهى الوصفُ إلى جمالها ثم يقف [٣] ؛ كنت أرى الشمس كأنما تجرى فى شَعرها ذهباً ، وتتوقد فى خدها ياقوتا ، وتسطعُ فى ثَغرها لؤلؤة ؛ وكنت أرى الورد الذى يزرعه الناس فى رياضهم ، فإذا تأملتُ شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذى يزرعه الله فى جنته ؛ وكانت لها حينا خفقةُ العُصفور وحينا كبرياء الطاووس ودائماً وَداعةُ الحمامة المستأنسة ؛ وكانت روحُها عَطِرة تَنْفَحُ نَفْح

---

(١) طرق القلب وشقوقه

(٢) المطر متى سح تابع حتى تقشع السحابة أو تتساير

(٣) لا نطيل فى وصفها هنا فهى التى وصفناها فى « حديث القمر »

المسك إذا تشامّت الأرواحُ الغَزِلةُ بالحاسة الشعرية التى فيها !

وكنت إذا رأيتها بجُملة النظر من بعيد صوَّر لها قلبى من الحسن والهوى ما يموت فيه مَوْنَة ثم يحيا ؛ فإذا جالستُها وأثبتُّ النظرَ فيها رأيتُها فى التفصيل شيئاً بعد شىء بعد شىء ، كما أنظر نجما بعد نجم بعد نجم : كلها شعاع وكلها نور وكلها حسن !

وما نظرتُ مرةً إلى النساء حولها إلا وجدتُ من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعفُ من جهتها عالياً عالياً ويتضاعف منهن نازلاً نازلا : كأنه ليس فى الأمر إلا أنها أُخِذَتْ من السماء ووُضعت بينهن !

هى كالفتنة المحتومة تنبعث إلى آخرها ؛ فليس منها شىء إلا هو يُحَسِّنُ شيئاً ويُشوق إلى شىء ، وبعضُها يُزيِّن بعضَها

* * *

لقد تَراخَى الزمنُ بى وبها ، ولو عددت لأحصيتُ مائةً وخمسين قمراً [1] منذ فارقتُها ؛ وما أحسب الأرض إلا انصدعت بيننا عن أقيانوس عظيم من الزمن تمائه الأيام والليالى فلا يخاض ولا يُعْبَر ولا ينظر فيه أهلُ ساحل أهلَ ساحل غيره

وعلى أن هذا الزمن قد محا فى قلبى مِن بَعدها وأثْبَتَ

---

(١) كناية عن الشهر ، ولا تقول خمسين ومائة ، وكلاهما صحيح .
قلت : كان ذلك فى سنة ١٩١٢ ، وكان تأليف هذا الفصل فى سنة ١٩٢٤

فلا تزال تنشقُّ لها زَفْرَةٌ من صدرى كلما عَرَضت ذِكراها ، كأن القلب يسألنى بلغته : أين هى ؟

والقلبُ الكريم لا ينسى شيئاً أحبه ولا شيئاً ألِفَه ؛ إذ الحياة فيه إنما هى الشعور ، والشعور يتصل بالمعدوم اتصالَه بالموجود على قياس واحد . فكأن القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات بعضَ السر الأزلىِّ الذى يحيط بالأبعاد كلها إحاطة واحدة ، لأنها كلها كائنة فيه ؛ فليس بينك وبين أبعد مامرٍّ من حياتك إلا خطوة من الفكر ، هى للماضى أقصرُ من التفاتةِ العين للحاضر

✡ ✡ ✡

. ليس بجمال إلا ذلك الروحُ الذى يرفع النفسَ إلى أفق الحقيقة الجميلة ثم ينفخ فيها مثلَ القوة التى يطير بها الطير ويدعها بعد ذلك تترامى بين أفق إلى أفق ؛ فإمَّا انتهى المحبُّ إلى حيث يصير هو فى نفسه حقيقة من الحقائق ، وإمَّا انكفأ من أعاليه وبه ما بالطيارة الهاوية : رفعت راكبها إلى حيث ترمى به ميتا أو كالمغشىِّ عليه من مسِّ الموت !

والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا أو يجعل الحياة كالقتل ، ثم يدَّعون مع ذلك هوًى وحبًّا — إنما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التى يحبون بها الذهب والفضة وورق البنك . . . . .

وليس بحب إلا ماعرفتَه ارتقاءً نفسيًّا تعلو فيه الروح بين سماوَين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرآتين : يكون واحداً وترى منه العينُ ثلاثة مصابيح ، فكأن الحب هو تعدُّدُ الروح فى نفسها وفى محبوبها

✡✡✡

ولا سُمُوَّ للنفس إلا بنوع من الحب مما يشتَعِل إلى مايتنسم : من حب نفسك فى حبيب تهواه ، إلى حب دمك فى قريب تُعِزُّه ، إلى حب الإنسانية فى صديق تبَرُّه ، إلى حب الفضيلة فى إنسان رأيتَه إنساناً فأجللْتَه وأكبرتَه

فاذا أنت أصبتَ فى الخليقة من أغفلَ اللهُ قلبَه (١) عن تلك الأربعة ! فلا حب ولا صِلة ، ولا يألَف ولا يُؤْلف — فذلك هو الذى لا نفْس له من نفوس الناس ، كأنه سبُع من السباع الضارية ؛ أو هو الذى كله نفس ، كأنه نبى من الأنبياء . . . تجد الأولَ فيمن اعتزله العالم من شِرَار المجرمين وأخلاطِ الشياطين الإنسيَّة الذين لايَسَعهم الناسُ بعد أن انفصلوا من إنسانيتهم وانحطوا انحطاطا فى أشد العنف ؛ وتجد الثانى فيمن اعتزل هو العالمَ من خيار الأوَّابين والشهداءِ الذين لايَسَعُون الناسَ بعد أن اتصلوا بإنسانيتهم الكاملة فارتفعوا عن الخلق

(١) أهمل قلبه وتركه لايثبت فيه شيء منها

ارتفاعًا فى أرقِّ الرحمة !

* * *

الحب بعض الإيمان ؛ وكما أن الطريق إلى الجنة من الإيمان بكل قُوَى النفس ؛ فإن الطريق إلى الحب من قوة لاتنقص عن الإيمان إلا قليلا ؛ والخُطوة التى تقطعُ مسافة قصيرة إلى القلب ، تقطع مسافة طويلة إلى السماء !

وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الإنسانى إذا هو تحكَّم فى الدين ، يأتى البُغضُ من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم فى الحب (٥)

وتُرى ماهذا الشَّبه بين المرأة وبين السماء ؟ أكانت المرأة فى أصل الخلقة مادةَ سماء بدأتْ تتخلق فى الغيب فحبسها الله فى ضلع الرجل عِقاباً لها ، ثم عاقبها الثانيةَ فأخرجها للرجل تنظر إليه كما ينظر السجين إلى سجنه . . . ويكون اللهُ سبحانه قد عاقبها مرتين ، لتتعلم هى بطبعها كيف تتجنَّى على الرجل وتعاقبه مراراً لا تُعَدُّ ؟

أيمكن أن يكون هذا الجمال الفتان فى المرأة الجميلة خُلَاصةَ سماءٍ من السماوات خُلقت عينين وخَدَّين وشَفَتين ؛ تضحك أحياناً بالنور وتلتهب أحياناً بالبرق وتنفجر أحياناً بالرعد ؟

(٥) انظر كتابنا « حياة الرافعي » ص ٨٥ - ٩١

لقد عرفنا أن فى السماء جنة وناراً ، وأقسم لو صُغِّرت الجنة وجُعلت أرْضية تُلائم حياةَ رجل من الناس ، ثم عُجِّلتْ له فى هذه الحياة الدنيا ، لما كانت بمتاعها ولذاتها وفنون الجمال فيها إلا المرأةَ التى يحبها ! ... أما الجحيم فلا أرانى فى حاجة إلى برهان على أنها صُغِّرت وتجزأت واندفقت على الأرض شُعَلا فى أسماء من أسماء النساء ...!

لذلك أرانى لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة ، بل لا أدرى كيف أفهمها ؛ فمن حيثُما نظرتُ إليها لا أراها تبتدئ إلا من فوق العقل ، فأنظر إليها ساكتاً على أنها هى لا تنظر فىَّ إلا متكلمة

✡ ✡ ✡

ياملوِّنَ السماء والوجوه الجميلة : ياصوِّرَ الرَّوعة والحب ؛ يامُبدعَ هذه المعانى الظاهرة إبداعاً جعلها لدقتها كأنها لم تظهر ... يامُوجِد القلب كما هو لتملأه السماءُ إيماناً ، والجمالُ حبا ، والمعانى فكراً منهما معاً ...

ويا خالق الإنسانية العالية فى الانسان الكامل من إيمانه وحبه وفكره ...

... نعرف هذه السماء بما وسِعَتْ للإيمان ، وهذه الطبيعةَ بما رَحُبتْ للفكر ؛ فهل المرأة وحدها هى التى للحب ؟

تباركتَ إذ جعلت ماوراء الطبيعة فوق الفكر مهما سما ،

وجعلتَ الطبيعةَ حَول الفكر مهما اتَّسع، وأنزلت المرأة بين المنزلتين مهما كانت !

إن من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع، ومن النساء ما يُفْهَم ثم يَسْفُل فى معانيه الخسيسة إلى أن يُبتذل !

إن من المرأة ما يُحَبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان، ومن المرأة ما يُكْرَه إلى أن يلتحق بالكفر !

* * *

من المرأة حُلوٌ لذيذ يُؤكل منه بلا شِبَع ؛ ومن المرأة مُرٌّ كَرِيه يُشبَع منه بلا أكل !....

الفصل الثانى

النجمة الهاوية

طائفة من الخواطر فى طائفة من النساء

وترقرق السحاب فإذا هو كنضح الدم[1]، وإذا هو يفور فورَه[2]؛ فبان كأنما يتدفق من طعنة أرى دمها ولا أرى موضعها، لأن هذا الشلال الأحمر يتفجر منها

ورأيتها هى طالعةً كالشمس حين تغرب محمرة يتغالبُ طرفا الليل والنهار عليها؛ ففيها أواخرُ النور وأوائلُ الظلمة، وسوادُها يمشى فى بياضها[3]...

قلت يوماً فى صفة إحدى القصائد البديعة: إنها فنٌّ من الشعر؛ وفى إحدى الصور المُحكمة: إنها فن من التصوير؛ وفى تلك الجميلة: إنها فن من المرأة! أما الآن فقد عرفنا أن اصفرار الشمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها

ويقول العرب: امرأةٌ مَجْلوَّة؛ ويفسرون ذلك بأنك إذا رامقْتَ

---

(١) خروج الدم وسيلانه

(٢) غضبه

(٣) انظر كتاب «رسائل الأحزان»

فيها الطرفَ [١] جال ؛ يَعْنُون أنها من جمالها ذاتُ شعاع ، فيجول الطرفُ فيها لأجْل شعاعِها وبَرِيقها ؛ أفلا يجوز لنا أن نزيد فى هذه اللغة : وامرأةٌ صَدِئة ؛ ونفسرها بأنها هى التى إذا اتصلتَ بها تركتْ مادة الصدإ على روحك اللامع ، لأنها كهذا الصدإ طِينَتْ على طِينَتها [٢] ؟

* * *

لست أريد أن أصنع فى هذا الفصل كتابة حتى لا أدير الكلامَ على شىء ، فقد مُسِخَتْ تلك النفسُ فى نفسى فخلصَتْ لى منها هذه الكلمةُ الجميلة : « تتمُّ آمالنا حين لا نؤمِّل » ! ولكنى مرسلٌ مطرةَ سحابى تَهطِلُ ما هطَلَتْ ؛ فالمرأة الأولى أضاعت على الرجل جنتَه ، ومن نَسْلها نساءٌ يُضيِّعن على الرجل الجنة وخيالها ! ... ولو استطاعت الأرض أن تَفرَّ من تحت قدمَىْ مخلوق براءةً منه ، لكان أولَ من تنْخَزِل تحت رجليه [٣] واحدة من هذا النوع !

مِلْحُ الله لا يحلو أبداً ؛ فماذا تصنعُ فى نفس لو سالت لكانت بُحَيْرَة ؟

---

(١) أرسلت فيها النظر

(٢) أى جبلت على جبلتها وطبعها ؛ والصدأ أشبه بالطينة فى معدنه

(٣) أى تتقطع وتنخسف

✡ ✡ ✡

سرورُك من الصديق الطيِّب لا يكلفك إلا أن تستمتع به ، وأنت لا تخسر فيه إذا زال إلا أنه زال ؛ فإذا لم يكن الطيّب فى نفسه طيّبا كذلك فى أثره فهو الخبيث !

✡ ✡ ✡

بعضُ النساء تَنْقُص بها الحزنَ ، وبعضهن تُغَيِّر بها الحزنَ ، وبعضهن ... تُتمم بها حزنك !

✡ ✡ ✡

لا يتَّقِدُ الشجرُ الأخضر إلا من أشد النار سَعيراً ، وتتَّقِد المرأة الجميلة حتى من أشعة وهمها !

✡ ✡ ✡

فى قلب الرجل أَلْفُ باب ، يدخل منها كلَّ يوم أَلْفُ شيء ؛ ولكنْ حين تدخل المرأةُ من أحدها لا ترضى إلا أن تغلقها كلها ... !

✡ ✡ ✡

النساء مَنْجَمُ السعادة ؛ فرجلٌ واحد لا يكاد يمدُّ يدَه حتى يضعَها على الجوهرة المُشْرِقَةِ ؛ ومائة رجل يُغَرْبلون حصى المرأةِ وترابَها ليجدوا فيها شَذْرَةَ تلمع !

✡ ✡ ✡

قال لى زوجٌ عن امرأته : أنا وهى ينتج منهما أنا بِلا أنا ... !

✡ ✡ ✡

لم يخلق الله أحداً مكروهاً قط ، وإنما نبغض من الناس الصوَرَ المكروهة التى يُحْدِثونها ؛ فعملك شخصك الحقيقى !

✡ ✡ ✡

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تثور يوماً فلا تدل ثورتُها على شىء إلا كما يدل المُسْتَنقَعُ على أن الوحْلَ فى قاعه ؛ فأَغضِبِ المرأةَ تعرفْها !

✡ ✡ ✡

الحبيبُ من تَلْتَهِمه بكل حواسك ؛ فإذا رأيتَه فقد رأيتَه وسمعتَه وذُقتَه ولمستَه وشممتَه ؛ والبغيض من تَقِيئه من كل حواسك ... !

✡ ✡ ✡

فى المرأة حقيقةٌ ، ولكنها ان تعرفَها إلا بفكر رجل ؛ فالكاملة من لا تسىء أحداً وإلا أساءت إلى حقيقتها !

✡ ✡ ✡

كلُّ ما يخْطُرُ ببالك فقَدِّرْ معه ضِدَّه إذا كنتَ تفكر فى الحب والبغض !

✡ ✡ ✡

يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم ، أن تعلمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها !

✡ ✡ ✡

الخبيثاتُ للخبيثين . قيل لأرض حَطِيبَةٍ [١] : من تشتهين أن يكون زوجك لو كنت امرأة ؟ قالت : الفأس !

✡ ✡ ✡

تجاورت شجرةٌ من الحَسَك [٢] وشجرة من الورد ، فزَهَت الوردة زَهْواً عاطراً بطبيعة العِطْر الذى فى مادتها . فقالت لها الحَسَكة : وَيحكِ ! ما هذا الزَّهْوُ الذى أفسدتِ به محلكِ من نفسى ؟ قالت الوردة فى كلامٍ هو عِطْرٌ آخر : لا تتعبى نفسكِ فى تحقيرى ؛ فلست أفهم لغةَ الشوك إلا إذا كان يُنْبِت الورد !

✡ ✡ ✡

قد يتغيَّر الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له : يا أنتَ الأولَ ، يا أنتَ الثانى [٣] ! ...

... ولكنى عرفت رجلا قال لامرأته : يا أنتِ الخامسةَ والخمسين !

✡ ✡ ✡

---

(١) أى كثيرة الحطب لخبث تربتها

(٢) الحسك : هو الشوك ، وسميت به شجرته مجازا

(٣) يريد تغير الطباع وفتور النفس وما أشبه ذلك

قيل لحيَّة سامة : أكان يَسُرك لو خُلقتِ امرأة ؟ قالت : فأنا امرأة ، غير أن سَمِّى فى الناب وسمّها فى لسانها !

✡ ✡ ✡

ما ألأمَ الشجرةَ التى لو نطقتْ لشَتَمتْ من يسقيها !

✡ ✡ ✡

لا يفكر الرجل فيما لم يَحْدُثْ على اعتبار أنه حادث ، إلا فى شيئين : المصيبة التى يكرهها ، والمرأة التى يحبها !

✡ ✡ ✡

قال رجل حكيم : إذا بلغك عن أخيك ماتكره فاطلب له من عذرٍ واحد إلى سبعين عذراً ، فإن لم تجد فقل : ولعل له عذراً لا أعرفه ! وقالت امرأة حكيمة ... إذا بلغكِ عن رجل ماتكرهين فاطلبى له من ذنب واحد إلى سبعين ذنباً ، ثم قولى : ولعل له ذنوباً لا أعرفها ... زَوِّجوا الحكمتين أيها الناس ... !

✡ ✡ ✡

يُخَيَّل إلىَّ أن عقل بعض النساء مثل وجوههن المزوَّرة : تحته ماتحته وليس عليه إلا «غُبارٌ» من العقل !

✡ ✡ ✡

من المستحيل أن تُسكِر النارُ وإن كان شررُها ينطفئ

كحبب الكأس ، ومن المستحيل أن تلذع الخمرُ وإن كان حبيبها يموج موجَ الشرر ؛ ولكن من الممكن أن تجد فى امرأة واحدة لذعَ النار وإسكار الخمر معاً ، وهى شيطانة النساء ، يجتمع مكنُها من مستحيلين !

✡✡✡

شرُّ النساء عندك وعندى هى التى تجعلك تتنبَّه إلى ما فى النساء من الشر !

✡ ✡ ✡

قال بعضهم لزاهد عظيم : إنى رأيتك الليلةَ تمشى فى الجنة ؛ فقال له الزاهد : ويحك ! أمَا وجد الشيطان أحداً يَسْخَر منه غيرى وغيرك ؟ وقال رجل لامرأة : إنى رأيتكِ الليلة فى الجنة ؛ فقالت له : ويحك ! تقولها من غير أن تشكر فضلى عليك مع أنى أدخلتك الجنة ... !

✡ ✡ ✡

أشأمُ النساء على نفسها من لا تُحَبُّ ولا تُبْغَض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدَّتْ مُبغضيها لا تعدُّ إلا الذين أحبُّوها !

✡✡✡

ياهذه لا أدرى ما تقولين ؛ ولكنّ الحقيقة التى أعرفها أن نفس المرأة إذا اتَّسَخَتْ كان كلامها فى حاجةٍ إلى أن يُغسَل

بالماء والصابون ، وهَيْهات ... !

* * *

يا مَن على الحب يَنْسانا ونَذكُرُهُ
لَسوْفَ تَذكرنا يوما ونَنْساكا
إن الظلامَ الذى يَجلوك ياقمرٌ
له صباحٌ متى تُدرِكْهُ أخفاكا

الفصل الثالث

السجين

وتغيَّم سحابى هذه المرةَ وأطبَقَتْ فى حواشيه سوداءُ على سوداء [1] كأنه يجمع همَّ قلب بات الألمُ من عناصر حياته .

رأيتُ فى سَوائِهِ [2] رجلا أُلبِسَ الذِّلةَ وسِيمَ الخَسف ، [3] قد انتصبَ كالجِذع المشتعل وله فروعٌ من الدخان ، وهو هذا السجين الذى أقصُّ خبره

ألَا إنما الانسان من الأقدار كالنبات بين الفأس التى تَحْرُث له والمِنْجَلِ الذى يحصد فيه ؛ وما هذه الدنيا إلا هذانِ ، فلا يحسبنَّ العودُ الطالع أنه شىءٌ غيرُ العود المقطوع !

كنت يوماً فى محكمة كذا ، فجاءَ الجندُ بسجين قَرَوِيٍّ كالمارد ، يزعمون أنهُ سَبُعٌ من سِباع القُرى وشيطان من شياطين الليل ، [4] وقد غلُّوا يديه بسلسلة من الحديد لعل فَقَار ظهره أصلبُ منها

خُلق فى هيئة مُسْتَصْعبة شديدة المِراس كالجمرة المتقدة ،

---

(١) أى غيمة سوداء على غيمة أخرى

(٢) أى فى وسطه

(٣) سامه الخسف وأسامه : أولاه الهوان والذل

(٤) أى لص فاتك ، وهى كناية

ولكن الحياة مازالت به من نكد إلى أنكدَ منهُ حتى طمرَتْهُ فى رَمادها لأن له عثرةً هو عاثِرُها يوماً

وخُلق فى مِزاجه وعصبه من المادة المشتعلةِ ، حتى إذا التهب رأتْ منه الحياة شكلَها القوىَّ الجميل فى الرجل المشبوب يُرسل فروعَهُ النارية على ماحولهُ ؛ فاذا خمد رأى منهُ الموتُ شكلهُ العنيف الجميل فى الجرة العليلة الذابلة حين تمر أنفاس الهواء عليها

رجلٌ طوَالٌ إذا انتصب والناسُ وقوف حولهُ رأيتهم معه أشبهَ بهم قعوداً ، مما يفرَعهم من طولهِ وامتداد قامته ؛ مجدولُ الذراعين مَشبوحُ العظام [1] قد تباعَدَ مَنكِباهُ وترامى بينهما صدرٌ مصفَّحٌ كلُّ ثدى من ثديهِ يجمع قوةَ أسد

وهو فى توثيق جسمهِ وتفرع بعضه من بعض كأنه شجرة رجال ، كلُّ فرع منها بَطَلٌ مُنكر ؛ وهو فى إحكام تركيبهِ واندماج بعضهِ فى بعض كأنه تمثالٌ أُفرغ من حديد فتوزَّعت فيه الكُتَلُ هنا وهنا ، وكل مانيه من الإجمال والتفصيل أنه جسمٌ آدمى يمثل للأعين ناموس « بقاء الأنسب »

وجاءوا به والناسُ مُتقصِّفون عليه من ازدحامهم ينثنى بعضهم على بعض لينظروا إلى الرجل الكامل ، بل الذى نقص

(١) الشبح : عرض العظام ، وهو من علامة القوة والصلابة

حين كمُل ؛ وهو مطل عليهم ... كأنه عبارة مُبهمةَ فى صحيفة ، وكأنهم من حوله شروح وتفاسيرُ رُقمت على حاشيتها بخط دقيق . وقف كالشىء الغامض يروعهم بغموضه أضعافَ مايعجبهم بروعته ! وكانوا كالشعاع : خيطاً يظهر من خيط ، وكان كالظلة : نسيجا من قطعة واحدة ؛ وأحسبه لو صاح بهم صيحةَ البأس لسقطت قلوبهم من علائقها سقوطَ أوراق الشجر فى قاصِف من الريح ، وكأن مابينهم وبينه فى الروعة والقوة كالذى تقيسه بين ألف متر انخسفت تحت الأرض وألف متر انبثقت فوقها ؛ فالبعد بين طرفيهما مضاعَفُ كلٍّ منهما ؛ وما زالت سُنَّةُ الله أن تتضاعف الفروق دائما بين الأشياء التى لايمكن أن تتفق ، حتى لايمكن أبداً أن تتفق !

أما أنا فما يعجبنى شىءٌ ماتعجبنى القوة السليمة فى رجل شجاع ، والضعف السالم فى امرأة جميلة ؛ وكما أنظر أكثرَ الوقت بالنظر الساكن المفكر ، أحب أن أنظر أحيانا بمثل البرق المتطاير من عينى أسد مفترس ، أو الازورار الزائغ فى عينىْ جواد جَموح . وخيرُ الناس فى رأيى من غَسَله تاريخُ أهله بضوءِ السماء وضوءِ السيوف معاً (١)

* * *

(١) يريد بهذا أن يكون من أجداده الأبطال والحكماء وأهل العلم

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يُمسكُه الحديدُ الذى يَعَض على يديه ، بل ذنبُهُ الذى يعض على قلبه ؛ ولعله قَتَل ضعيفاً مظلوماً فتحوَّلَ ضعفُ القتيل وذِلَّتُه ومسكنتُه إلى أرواحٍ منتقمة من كبريائه ، تدسُّ فى ضميره عنصرَ الجبن البغيض إليه ، وتربط الروحَ الميتة إلى روحِـه ؛ فلا ينزع ظلمتَها عن قلبه كل ما فى النهار من الضوء ، ولا يجـد النورَ إلا فى الإقرار والندم فيسكن إليهما .

وتبيَّنته فرأيته ساكناً سكونَ الاستهزاء ، كأنه على ثقة مما خفى عنه تشبه ثقته بما وَضَح له ؛ أو هو لتعاستِه أخْفَقَ أكثرَ مما فاز . والإنسان متى كثر إخفاقه صارت الخيبةُ فى الأعمال هى الخطةَ التى يبنى عليها ؛ أولا هـذه ولا تلك ، ولكنها الشجاعةُ تجعل المطمئن إلى غاية الحياة لا يبالى بكل وسائل هذه الغاية المحتومة !

وقيل إنه بَعْدَ أن غمس يده فى الدم طار على وجهه تَلْفِظُه الأرض من جهة إلى جهة حتى أسلمته يدُ النقمة إلى يد العدل !

* * *

ترى لو سألنا الوحشَ حين يفترس إنسانا : ماذا وقـع فى نفسك منه حتى ثُرتَ به وعدوتَ عليه ؟ أكان يقول — لو أنطقه الله — إلَّا أنه أبصر فى هذا المخلوق وحشاً ماكراً خبيثاً إن يكن

فى دِقَّة ناب الثعبان فهو فى خطر سمّه ؛ وأنه لو رأى عليه سَمْتَ إنسان وأبصر له نظرةَ إنسان وأحسَّ منه قلبَ إنسان لَلَجَأَ من وحشيته إلى الإنسانية التى فيه ، إذ الإنسانية هى حَرَمُ الأمن الإلهىّ الذى توضع عنده كلُّ الأسلحة ، حتى أسلحة الوحوش ، وإذ الإنسان هو محرابها الذى تضرع عنده كل القوى ، حتى قوى الطبيعة

كأنما كَبُرت الإنسانية حتى عن أن تكون شيئاً إنسانياً ؛ فما هى فيمن تَرَى ممن حَشْوُ جلودهم ناسٌ وحشو نفوسهم بهائم ... إنما الإنسانية هناك ، بعد أن تخرج بنفسك من حدود الشهوات الأرضية وترفعها فوق هذه الطبيعة ؛ وبعد أن تُعانىَ فى شَق طبقات النفس الحريصةِ طَبَقا عن طَبَق مثلَ الذى يعانيه من يحفر فى أصلب أحجار الأرض إلى غَوْر بعيد !

فهناك لا تجد الأشياء بل معانيَها وأسرارَها ، ولا الحوادث بل أسبابها وأقدارَها ، ولا نيرانَ النفس بل أضواءَها وأنوارَها ؛ فترجع من ثَم وفيك الناموس الذى يُنبِتُ الخُضرةَ من العود المغبَرّ[1] ويُخرج النارَ من الشجر المخضَرّ ، ويجعلك لبحر هذا الأزل كأنك مكانٌ من البرّ

* * *

(١) الجاف من الشتاء

كان السجين فى بَهْوِ المحكمة ، تصعد به الجند إلى غرفة « قاضى الإحالة »[1] ووقفوه ساعة على مَطَلّ بين يديه فِناءٌ واسع أسفلَ منه . فتحوّل الناس إلى هذا الفِناء وتحولت معهم ، وكان البطل يلوح كطرف المِئْذنة ؛ فما هو إلا أن أدار عينيه فى الناس حتى استقرّ بهما على ناحية ، فنظرتُ حيث نظر فإذا داءُ قلبِه وقلبِ كلٍّ من رأى ....

... ست نساء وفتى وطفلان ورضيع ؛ فأما واحدةٌ منهن فأُمّه ، وأما الثانية فزوجُه ، والباقيات أخَواته ، والفتى فرع أبيه[2] ثم الطفلان والرضيع أولاده ، وقد جاءوا يودّعونه ويستودعونه ، وحسبوا أن ليس بين رَجُلهم وبين الموت إلا هذا القاضى الذى مَثَلَ ببابِه ، فطرح الموتُ ظل فكرِه على وجوههم ، وأخذ الرعب مأخذَه فيهم ؛ فما كانوا إلا كما يجتمع أهل الميت حول الميت :

رأيت أمه المفجوعةَ جالسة لاتحملها رِجلاها ، وعلى صدرها ذلك الرضيع تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت إليه ، وتشدُّ عليه بيديها شَدَّةَ الجزَع والحنان كما لو كانت تحسبه صِلة

---

(١) هو القاضى الذى يسمع القضية فان رأى البراءة حكم بها وإلا أحال المجرم على محكمة الجنايات لتقضى فى أمره

(٢) أخوه ، وهى كناية

بينها وبين ابنها ، تنقل هذه الشِّدَّة بعينها إليه كما تنقل الكهرباءُ حركةَ المتحرك ، وقد انطلقت دموعها ، وفى كل نظرة إلى نكبة وحيدها مادةٌ جديدة للبكاء !

وهى تنحنى على قلبها حتى يدانىَ وجهُها الأرض ، كأنها شعرت به ينكسر فمالت ليلتئم صدع منه على صدع ؛ ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشق قلبها فتضغطه بانحناءةٍ أخرى ؛ وهى فى كل ذلك مُرْسِلةٌ عينيها تمطر مطراً ؛ وكانت حين تنكف دمعَها [1] وتُنَحِّيهِ عن خديها ، يتساقط من فُروج أصابعها كأنه عددُ أيام شقائها !

وحَسِبَ الرضيع أن هذه الحركة هَدْهَدَةٌ [2] من أمه لينام ، فنام هنيئاً على صدرها ، وأدفأهُ غليانُ هذا الصدر فضاعف لذةَ أحلامه ! وإنما هو طفلٌ سماوىٌّ لايزال مَسُّ يدِ الله على جلده الرطب ، فلو زَفَرت حولهُ جهنمُ فأحرقتْه لكفَّنتْهُ نسمة من نَسمات الجنة ؛ ويا سعادةَ من يستطيع بطبيعته أن ينقطع من وسائل نفسه إلى وسائل الله [3]

---

(١) النكف : أخذ الدمع عن الخد بالأصابع

(٢) هدهدت الأم ابنها : حركته لينام

(٣) والعجيب أنه لايستطيع ذلك إلا أصغر من فى الانسانية من أطفالها ، وأعظم من فيها من أنبيائها !

وأما زوجة الرجل وهى شابةٌ جَزْلة الخلق ناضرة الصِّبا تركها الحزنُ كالمرآة المهمَلة : تدل أنوارُ بريقها على مواضع الصدإ منها — فكانت واقفة تحمل على رأسها بُرْمةً أعدت فيها ما تعرف أن سيدها يشتهيه من طعامه ، كأنها تريد أن تجعل من هذا الطعام الذى يحبه رسالة من الحب بين نفسها ونفسه ترسلها إليه فى سجنه ! . . . ولما استقرت عينهُ عليها ، أرسلت كلَّ عواطفها فى مجارى دمعها ، وقد أيقنت أنه قُطع بها دون عِمادِها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذهبى الذى لاتملك غيره ؛ فكانت تبكى لكل معنى من هذه المعانى بكاء بعينه ، وتبكى على قدر وفائها الذى لاحدَّ له ، وحبها الذى لا صبرَ معه ، ومصيبتها التى لا سبب فيها من أسباب العَزاء ؛ وكل نظراتها كانت تقول لزوجها : لكَ ما أبكى (١)

وأحاط بها أخواته الأربع صفر الوجوه ساهمات الخدود ذابلات الأعين ، كأنما تَدلَّين إلى الأرض من مشنقه ! والبنتُ قطعة من أمها ، ولكنها فى الحزن على أبيها أو أخيها بعدَّة أمهات ؛ فهل تُراها لاتستوفى فى بطن أمها إلا نصف حياتها كهيئتها فى الدنيا . . . . ويبقى النصف الآخر فى أخيها ، فإن مرض خَامَرَها نصفُ الداء ، وإن مات وقع عليها نصف الموت ،

(١) أى أبكى لك وحدك لا لخاصة نفسى

ولا يكون حزنها عليه إلا هدَّة فى حياتها لايمكن أن تبنى ؟

أما أخو السجين فوقف ناحية عن النساء وجعل يبكى ويَعْصِر عينيه ؛ ولا أدرى إن كانت الفِطرةُ هى التى أبعدته عنهن حتى لايشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقاً كهذه الخيوط من الدمع ؛ أم هو انتَحَى جانباً كيلا تتصل به عَدوى الضعف ، وليستطيع أن يبكى على أعين الرجال بكاءَ رجل فى دمعه شىءٌ من القوة ؛ أم هو انتَبَذَ مكانَه ليتكلم مع آلامه ؛ فإن الآلام تتكلم ولكن بإحساسنا ؛ وكان لهُ مع أوجاعِ قلبه حديث طويل ؟

وأما الولدان فربض أحدهما فى الأرض ووقف الآخر لأنه أكبر منه قليلا ، وكلاهما ضامرُ الوجه مُتَقَبِّض منكسرٌ من هَوْل مايرى ؛ وكانت عيونهما الحائرةُ تدل على أنهما بإزاء حالة غير مفهومة ، فأبوهما حى لم يمت وعيونُهما مكتحلة بعينيه وليس بينهما وبينه إلا ارتفاعُ شجرة ... فلم لايصلان إليه أو يصل إليهما ؟ وعلام هذه المناحة ولا ميت ؟ وفيمَ هذا الجمع ولا معركة ؟

أخذا يدرسان الدنيا كلها فى معضلتها الأولى من حيث لايفهمان شيئاً وبدأ العدل الإنسانىُّ الرحيم يُخشن صدرَهما ليعلما ذات يوم معنى الظلمِ الذى يكون مرة باعثا على العدل ويكون

مرة هو إياه !

ألا ويحك أيتها الإنسانية ظالمة أو مظلومة ! إن أمامك من هذين الطفلين الموتورين آلتيْ تصوير قد نقلتا هذه الصورةَ ، وستحفظانها إلى يوم ما ! . . . .

صورة بشعة على تلوينها ، إذ لا سواد فيها إلا من الحظوظ ، ولا بياض إلا من الدموع ، ولا صُفرة إلا من الوجوه ، ولا حُمرة إلا من لهب القلب ؛ وسيمضى كلُ شىء لسبيله فيُنْسى ولا يُنسى ؛ لأنها مادة علمية مصوَّرة ، كرسم تعليمىّ فى جغرافيا الجريمة !

هى اليوم صورة طفل فهى للحفظ ، وغداً صورة شاب فهى للعلم ، وبعد غد صورة رجل فهى . . . . للعمل

* * *

كان السجين كالميت : تراه تحت أعين أهله وهو فى عالَم آخر ، وبين أيديهم وكأنه حسرةٌ بعد أمل ضاع ! وكان كلامهم سَمْعَ أذنيه [1] ولكنه من معنى ما يجب على بعدِ ما بينه وبين المستحيل ابتلاه الله بالجريمة ، ثم ابتلاه بالقصاص ، ثم تمم عليهما بمصيبة فى مقدار عذابهما معاً ، وهى رؤيةُ أهله جميعاً فى حالة لا يملك فيها قدرة ولا صبراً !

(١) أى يصل إلى سمعه فيعيه

إنما يُمسك الإنسانَ قوتان : قدرةٌ يمضى بها فيدركُ فيطمئن ، أو صبرٌ يقعد به فيعجز فيطمئن ؛ ولكنه متى امتُحِنَ بشىء لا يقدر عليه ، وهو مع ذلك لا يصبر عنه ، فقد وضعه الله من ثَمَّةَ فى حالة لا إنسانية ولا وحشية ولا دونهما ولا فوقهما إذ يسلّط عليه كل القُوى التى داخله تدفعه بأشد العنف إلى القوى المحيطة به ، ويُغْرِى المحيطةَ به ترميه إلى التى فى داخله ؛ فما إن يزال مرتطماً بين هذه وتلك ، وكأنه لشدة وقعهما يُحَطَّم تحطيما بين مِطْرقتين !

وهذه البليةُ من العذاب لا تتفق إلا فى أشد ما يكره الإنسان حين لا يجد منه مفرًا ولا يُطيق عليه مَقرًا ، وفى أشد ما يحب حين لا يقدر إلى حد اليأس ولا يصبر إلى حد الجنون . وأحسبُ ما فى الأرض منتحرٌ قط أزهق روحَه — إن لم يكن مجنوناً — إلا وهو فى احدى هاتين الحالتين ؛ فإن وجدتَ من يُثَبِّتُهُ الله على حالة منهما وجدته كالبقية من الحريق : ان لم تكن احترقت وذهبت فقد احترقت وبقيت !

✡ ✡ ✡

أجرم السجينُ فأُخذ بذنبه ، فما ذنوب هؤلاء جميعاً ؟ أهى إحدى الحقائق العُليا الغامضة التى من أجل غموضها واستبهام حكمتها يقول الحائرون : « كلُّ شىء هو كل شىء ! » ويقول

المنكرون : « لاشيءَ فى كل شيء ! » ويقول المؤمنون : « كل شيء فيهِ شيء » ؟

أم هى الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها وإن أصبح الناس لايفهمونها إذ لاتحتاج إلى فهم وإنما هم موكلون بما خفى ودقّ ، كدَأْبِ هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر فى دقيقِ المباحثِ وعويصِ التراكيب ، ثم لاينتهون من نتائجها إلا إلى النواميس المكشوفة انكشافَ النور لكل ذى عين تبصر !

أهى الحقيقة السهلة التى تجزأت من أجلها آية الله ، فيقول المنكرون : « لاعلم ! » ويقول الحائرون : « لاعلم لنا ! » ويقول المؤمنون : « لاعلم لنا إلا ماعلَّمْتَنَا [1] ! »

ألا أيها القلب الإنسانىُّ المعجز ؛ إن أيامك كلَّها مُضِىٌّ فى سبيل الموت الأول كما هى مُضِى فى سبيل الحياة الأخرى ؛ فأنت تسير فى طريقين معاً ، وهذه هى معجزتك التى لاتُفهم [2] !

ونحن من ظلام الدنيا ومن بحثنا عن الحكمة الإلهية الصريحة بوسائلنا الإنسانية العاجزة ، كالذى يبغى أن تَطْلع عليه الشمس

---

(١) فى القرآن الكريم عن لسان الملائكة يخاطبون الله عز وجل : « قالوا لاعلم لنا إلا ماعلمتنا » وهو قول الملائكة ، فكيف بالناس ؟

(٢) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها ، ولهذه الحياة الدنيا واجباتها وأعمالها ؛ وقلما أشبهت واحدة واحدة ، والانسان يعمل لهما معا ويريدهما معا !

فى ليلهِ ويبقَى له مع ذلك ظلام الليل ! يريد مستحيلين لا مستحيلا واحداً ، وهذا هو عقلنا الذى لا يُعْقَل !

لو أراد الله بك خيراً أيها القلب المسكين لما جعل شقاءَكَ يُرَبَّى فيكَ تربية كما تُرَبَّى أنتَ فى الإنسان وكما يُربى الإنسان فى الحياة . فالحب والرحمة والشفقة والصداقة وكل المعانى التى هى روابط الإنسانية فى اشتباكها ، هـذه كلها هى وسائل مَسَرَّتك فى حالة ، وهى بأعيانها أسبابُ عذابك فى حالة أخرى !

جُذورٌ اسْتَتَرَّ بها الغيب [1] وفى أيدينا فروعُها وأوراقُها وثَمَراتها : تلك هى شجرة الحياة ، فلنا حُلوها ومرها وما يَفِيءُ من ظلها وما يَنْحَسِرُ ، ونُشَذِّب [2] منها فتنمو وتزيد ، ونُغَيِّر من أشكالها ونلوى أو نكسر من فروعها ماشئنا ، ونترك من ثمرها ماينضج إلى أن ينضج أو نتناوله فجًّا لا يُساغ ولا يُطْعَم ؛ أما أن نجعل مُرَّها حلواً ونُرسل المادة الحلوة بأيدينا فى جذور الفروع المرة التى لا تُؤْتى ثمرَها إلا عِلَلا ومصائبَ ونكبات وموتاً — فهذا مالا سبيل إليه ولا يُغْنى فيه غَناء ولا تبلغ منه حيلة ، إلا إذا استطعنا أن نُطفئ الفرْعَ الأحمر من النار فيتحولَ فى

---

(١) خفيت فيه

(٢) تشذيب الشجر : تقطيع فروعه لينمو

أيدينا إلى شيء آخر غير الفرع الأسود من الفحم !

تأتى النعمةُ فتُدنى الأقدارُ من يدك فرعَ الثمر الحلو وأنت لاترى جذره ولا تملكه ، ثم تتحول فإذا يَدُكَ على فرع الثمر المرّ وأنت كذلك لاترى ولا تملك ؛ ألا فاعلم أن الإيمان هو الثقة بأن الفرعين كليهما يَصلانِك بالله ؛ فالحلو فرعُ عبادته بالحمد والشكر ، وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحِس ؛ والمرُّ فرعُ عبادته بالصبر والرضا ، وهو الأحلى حين تذوقه بالروح !

القلب الإنسانى ميدانٌ تقتتل فيه القُوى الأرضيةُ والسماوية ، فلا بد فى النصر والخذلان جميعاً من الدم يذهب كُلُّهُ أو بعضه ؛ والجِراح تبرأ أو لاتبرأ ؛ والآلام تُنْسَى أو لاتُنسَى ...

لابُدَّ : لابدَّ ؛ لابدَّ !

* * *

وجاءت حافلةُ السجن فركبها السجين ومضت تجرها البغال طائعة منقادةً كما تنقاد إذا هى جرت مركبةَ ملك ؛ وذهبت وما تحفِلُ بشيء من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها ماتحفل بهذا السوط الدقيق المسلَّط على ظهورها ... أما أهلُ الرجل فتهالكوا وراء العربة ؛ فالشاب يَخْطِفُ فى عَدْوِه خطفاً مُنكَراً ، كأن قربه منها يُوَصِّل بعضَ أنفاس الحرية إلى أخيه ؛ والنسوة يَهْتِلِكنَ فى جريهن ، وكلما أبعدت الحافلةُ علا صُراخُهن ليبلغ السجينَ

منهن شيءٌ ما ؛ أما الطفلان وجَدَّتُهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ، ولكن نظرات الجدة ارتمت إلى العربة ، فلما غابت عنها ارتمت إلى السماء !

وأما الرضيعُ ، هذا اليتيمُ فى حياة أبيه ، هذا المسكين الذى ابتدأ تاريخه بجريمة لايدَ له فيها ، هذا الضعيفُ لايزال جلدُه أرقَّ دِيباجةً من ورق الزَّهر ، ومع ذلك تُدق فيه منذ الآن مسامِيرُ الفقر واليُتْم والضياع — أما الرضيع اليتيم المسكين الضعيف فكان وحدَهُ بين هذه المصائب الماحقة دليلا على الأمل الإنسانى فى رحمة الله ، إذ فتح عينيه للنور وابتسم !

* * *

نَزَتْ كبِدى [1] لما رأيتُ الحبَّ الهالك يَسْتَنفِض امرأةَ السجين ويسوقها جامحةً فى عِنان الغيظ تَتَرامَى على وجهها .

كانت المرأة غريقة فى يأسها ، وكان شاطئ الأمل يفرُّ أمامَ عينيها فراراً لأن بينها وبينه موجةَ دمعها

وقد صَدَعَ الحبُّ فى قلبها صَدْعا لِيغرزَ فيه الشوكةَ المُستَحِدَّةَ من ألم الفراق لمن تحبه ؛ تلك الشوكة التى مانفذتْ قلباً فاستقرت فيه إلا جعلت الحياة كلَّها معانىَ شائكة حتى تُحْطمَ أو تُنْتزَع

---

(١) اضطربت فى مكانها من الاشفاق ونحوه

امرأة والهَة ، فيها نفسُها المعذبة ، وفى نفسها رجُلها المعذب ، وبين هذين طفلُها اليتيم الذى يقتضيها أن تظلَّ حانيةً عليه حُنوَّ أبوين ؛ فهى تجمع على قلبها عذابَ ثلاثة قلوب ، وتتألم بنفسها الواحدة ألمَ الرثاء لزوجها الذى نَزَلَتْ به العقوبة فى جسمه وروحه ، وألمَ الإشفاق على مجـــدها الذى نُصب على أعين الشامتين فى موضع الذِّلة ، وألم الرحمة لطفلها الذى بلغ سن الهمِّ وهو لايزال فى الثَّدى[1] ، وألم اللوعة لحياتها التى لم تعد الأيام تناجيها بغير لغة الدمع ، وألمَ الأسى على شبابها الذى تساقطت آماله كما تَحُط الشجرة الخضراء أوراقَها لتَجِف !

أَلا ياماء البحر ، ما أنت على أرض من المِلْح ؛ فبماذا أصبحتَ زُعاقاً[2] لاتحلو ولا تساغ ولا تشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ، ولكنك ياماءَ البحر ذابت فيك الحكمةُ المِلْحة ! ....

✡ ✡ ✡

ما الفراق إلا أن تَشعر الأرواحُ المفارقةُ أحِبتَها بمس الفناء لأن أرواحا أخرى فارقتها ؛ فى الموت يُمَسُّ وجودنا

---

(١) أى الرضاع ، وتقول : مات فى الثدى ، إذا مات رضيعاً

(٢) الزعاق : الماء المر لايطاق شربه ، وتأتيه المرارة من شدة الملوحة

ليتحطم ، وفى الفراق يُمس ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروحَ فى كفه حين موتها ، هو الذى يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ، فعند الفراق تُنْتَزَع قطعةٌ من وجودنا فنرجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنًى من المَنَاحة على معنى من الموت !

وكل مافيه الحب فهو وحده الحياة ولو كان صغيراً لاخَطَر له ، ولو كان خسيساً لاقيمةَ له ؛ كأن الحبيب يتخذ فى وجود صورة معنوية من القلب ؛ والقلب على صغره يخرج منه كل الدم ويعود إليه كل الدم

فى الحب يتعلم القلب كيف يتألم بالمعانى التى يُجَرِّد من أشخاصها المحبوبة وكانت كامنةً فيهم ، وبالفراق يتعلم القلب كيف يتوجع بالمعانى التى يجردها هو من نفسه وكانت كامنة فيه .

فترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نَشعر به ، ولكن فارقنا من نحبهم نبَّه القلبُ فينا بغتةً معنى الزمن الراحل ؛ فمن الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطاير عدة سنينَ من الحياة وترى العمرَ يمتلئ شيئاً فشيئاً ولا نُحس الزيادةَ كيف تزيد

فإذا فارقنا من نحبهم نبّه القلبُ فينا معنى الفراغ ؛ فكان من الفراق على أكبادنا ظمأٌ كظمإ السقاءِ الذى فرغ ماؤه فجف وكان الفِرَاق جفاء

ألَا ياطائر الحب ، إن لك إذا طرت جناحين ؛ فما أقرب من هو على جَناح الفراق ممن هو على جَناح الهجر .

الفصل الرابع

الرَّبيطة[1]

واطَّلع فى سحابى هذا الشيطانُ الذى تتلألأ على وجهه مَسْحَةُ مَلَك[2] فهو أخبث الشياطين لأنه يسوق إلى الهلاكِ فى نُزْهَةٍ على شاطئ نهر الحياة

هى فلانة ؛ كانت امرأة فرنسية ربيطةً لرجل عرفتُه قديما[3] لأعرفها منه ، فأكتب عنها رأىَ العين وأكونَ أفْهَمَ بها وأدنى إلى حقيقتها ؛ كما يريد عالمُ الطبيعة أن يكتب عن بركان يتأجج فهو يَدْلف إليه[4] يطَأ على أرض كأن ترابها حَريق يتنفسُ آخر أنفاسه !

ماساح رجل فى العُمران ولا ضرَبَ فى تَجْهَل من الأرض

---

(١) هى المرأة التى تربط بأجر أو بعقد مدنى ... فى بيت رجل ، فتنزل منزلة الزوجة على أنها مدبرة بيته ، وتكون ساقطة المدنى شريفة الاسم « Maitresse » وهذا الجنس من النساء طاعون الزواج فى هذا العصر

(٢) كناية عن روعة الجمال

(٣) قلت : هو الدكتور حسين الهوارى (أخبرنى الرافعى) وكان فى صدر شبابه - كأكثر واردات أوربا - زيفا فى الدين وزيفاً فى الخلق وزيفا فى الرجولة ؛ على أنه اليوم من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظا على تراث قومه ، وله مقالات فى الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين !

(٤) يمشى فى بطء فوق الدبيب

ولا أضل فى تيه منها ولا كشف للناس غمضا من غموضها [1] ولا تطوّح فى بحر من بحارها — إلا وأنت واجدٌ من مثل ذلك معانىَ فى نفوس النساء ؛ كأن هذه المرأة تمثال مصغّر خُلق بمعانيه فى مقابلة الأرض بمعانيها ؛ فهى فى روح الرجل إمّا الخِصْبُ أو الجدب ، وهى له فى الحياة إما المِلْح أو العذب ، وهى منه العامرُ والخرابُ ولكن فى القلب !

* * *

كان صاحبنا فتى تَلْمَعُ عليه غُرَّةُ الشباب ، وقد رقّ حتى كاد يخالط حدَّ الأنوثة ، ولان حتى قاربَ أن يفوت معنى الرجولة ، وظَرُفَ حتى أوشك أن يكون إنساناً تتفتح فى روحه معانى الزهر ؛ ولكنك إذا كنت رجلا صحيحاً أمررْتَهُ على عينيك كما تُمِرُّ كتاباً لا تريد أن تقرأه !

فقد تمدن فى أوربا ولبِثَ عن قومه ما شاء الله [2] ، ثم رجع إليهم كأن أمه لم تلدْه ، وكأن أباه جدُّه الأعلى ... فبينه وبين أبيه هذا بضعة أجداد منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو (الهر ...) وأصبح يُحس أن كل شىء فى هذا الاجتماع الشرقى مسلط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغِلْظة والجفاء والعنَت

---

(١) الغمض : المكان المجهول من الأرض

(٢) أى غاب عنهم ، تقول لبث عن أهله كذا ثم أتاهم

والأذى ، كأنه (رحمه الله ...) ابن الضباب ، فلما برز إلى هذه الشمس وضحا فى أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخر ... !

وكان من هؤلاء الفتيان الذين إذا تعلموا فى أوربا نفوا جهلهم بالعلم ، ثم نفوا علمهم بجهل آخر ... ثم جاءونا كحرقى النفى : ما ولا ... فليس منهم إلا التكذيب والإنكار والشك ؛ وتراهم أظرف وأجمل وأزهى من فراشة الربيع ، لا يريدون الحياة إلا أزهاراً ؛ ولا يطيقونها إلا ربيعاً ؛ وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم إلا نقطٌ من الألوان وأصواتٌ من الطنين ... وأجسامٌ ليس فيها رجالها !

* * *

سألت هذا الفتى مرة : أنت مصرى ؟

قال : ووطنى صميم !

قلت : أفترى أنك تصلح فى علمك وتهذيبك أن تكون مثالا يتأسى بك نشء بلادك ؟

قال : إنى لأرجو ذلك .

قلت : وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية ومساواتها بالرجل فى الحرية المطلقة وبعثها من هذه القبور التى تسمى المنازل ؟

قال : ذلك مذهبى .

قلت : فكيف ترىَ إذا اقتدى بك المصريون فأصهروا إلى الأوربيين وخلطوا الشَّمل بالشمل ؟

قال : لعل ذلك خير الطبّ لبلادنا ، فلا مَعْدِلَ عنه فى رأيى ؛ إذ يأتيها بالدم الجديد ، ويُدْمِج فى طباعها النظامَ والدقةَ ويبنى البيوت من داخلها .

قلت : أحسنتَ بارك الله عليك ؛ فكيف ترى إذا سألناك التسويةَ وقلنا لك : دع أختك تَصْبُ إلى رجل أوربى وتتزوج منه إجَارَة ... وتأت به إلى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك ! ثم لتفعلْ كل امرأة مصرية فعلها ، فيكون لكم أوربيات ويقوم عليهن أوربيون ... ؟

قال : أعوذ بالله !

قلت : فَعَل الله بك وفعل ، أفيبلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنة الله إلا إذا رأيتها ملء مملكة ، ولا تعرف حق وطنك فيك إلا حين تراه غريباً منقطعاً لاحق له فى واحد من أهله ، ولا تدرك واجب التضحية بلذتك وشهوات نفسك إلا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت فى مثل حال الذَّبيحة تَدْحَضُ برجلها تحت سكين الذابح ؟

قال : فما أنا وأمثالى إلا شذوذٌ من القاعدة التى يجب أن تبقى أبداً قاعدة ...

قلتُ : فعليكم غضبُ القاعدة ومَقْتُها وسَخْطَتُها : والله لأن تفْجَع البلاد فيكم جميعاً وتستركم بالقبور رمة بعد رمة ، خيرٌ من أن تتقلد منكم بَليةَ الحياة فى اختلاط الأنساب وارتداد الأسماء العربية عن دينها [١] وكسادِ النساء الشرقيات وتخنُّث الرجال الشرقيين وتدسُّس هذه العُروقِ الفاحشة اللئيمة فى ذرية الوطن !

قال : فكم من امرأة وطنية هى حمل على ظهر زوجها !

قلت : وكم من امرأة إفرنجية هى كَيَّةٌ على قفا صاحبها [٢] ...

قال : فماذا تصنع ونساؤنا جاهلات لاصبر عليهن ؟

قلت : أفتُزْهِق روحَك إذا مرضتَ أم تَطِبُّ لمرضك فى أناة وصبر ؟ وهل تفر من وطنك إذا ابتلاك بتضحية أم تثبت وتتجلد ؟ ثم ماذا أفدنا من علومكم إذا لم يحمل كلُّ عالم منكم جاهلة منهن فيعلّمها ويثقفها ويُخلِصها إخلاصَ الذهب الصافى ويربح ثواب الوطن فيها ؟ وإذا كنتم تهملون نساء بلادكم لأنهن جاهلات فحدِّثنى أفلا يزيدهن ذلك جهلا وضياعاً ، ويضاعف مصيبة البلاد فيهن وفيكم ، ويكون تركهن الذى قد يُستَصلَح ، سبباً لما وراءه من الفساد الذى لاصلاح له ؟

---

(١) يسمون أولادهم أسماء ينكرها الدين والوطن معا

(٢) هذه كناية عن المرأة يسكت الناس عنها أمام زوجها ، فاذا ولى عنهم قالوا فى ظهره ماقالوا و ... وكووا قفاه !

وهل ترون المرأةَ الوطنية منكم إلا كالزهرة : نضرتُها فى غصونها وأوراقها ، فإذا طرحتْها غصونها عمل مَنْبِتُها الاجتماعى فيها — وهو التراب — حين تتصل به ، عكسَ ماكان يعمل حين لم يكن يصل إليها إلا من فروعها وأوراقها غذاءً يحمل روح الماء وروح الشمس ؟

أما والله إنكم فئةٌ لا تُعد إلا فى مصائب وطنها ، وإنكم لكالأجنبى ، مادام أحدكم لا يَصِلُ أُمومةَ أولادِه بتاريخ أمه ؛ وإنكم لكالغاصب ، مادمتم تغصبون حقَّ نساء الوطن فى رجال الوطن ؛ وإنكم لكالعدو ، مادام كل واحد منكم حرباً على بيت ... أَلَا فدعونا من الجاهلين ، فقد يكون من بعض عذرهم الجهل ؛ ومن المتَلَصِّين ، فمن عذرهم الحاجة ؛ ومن المفسدين ، فمن عذرهم سوءُ التربية ؛ ومن الساقطين ، فعذرهم ضعفُ النفس ؛ ومن الخاملين ، فعذرهم التَّرك والإهمال ؛ ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واوٍ أخرى ، فكلها مُسَوِّغةٌ أعذارَها المحمولةَ على تَحاملها ، وكلها أقربُ إلى الدَّهماءِ منها إلى المتعلمين ، وإلى أخلاط الناس منها إلى الخاصة ، وإلى السفْلةِ منها إلى العِلْية ... ولكن ماعذركم أنتم عن شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشهوات واستهتاركم فى هذه الأثرة ؛ يعجزُ أحدكم أن يَكْسر جماحَ نفسه فيجنى على نفس من نساء وطنه ، هى التى زهد فيها واستبدل منها ؛ وعلى نفوس

من أبناء وطنه ، هم الذين سيُعْقِبُهم من ذريته ويأتى بهم للبلاد أجساماً غابت قلوبها ، ونفوساً بردت دماؤها ؛ يَنْزِعُهم العِرْقُ الأجنبي من أمهاتهم اللائى وَلَدْنَهم إذا حَمِى دمُ البلاد لبعض أغراضها ؛ ويكونون فى أمراضها من أسباب موتها ، وفى صحتها من أسباب أمراضها !

مالكم تُنزلون أنفسَكم منزلةَ الطفل البِكْر من أهله : ليس له إلا حظوظه وشهواته ؛ مُسَوِّغاً كلَّ مايقترحه عليهم ، لأنه هو كان اقتراحهم على الله ؛ محمولا على قلوبهم ، لأنه بعض قلوبهم ؛ يُفسد المتاعَ ، ويَحطم الآنيةَ ، وتنزو به النعمة نَزْوتها فتجعل نصف عقله جنوناً ، ونصف أدبه حمقاً ، ونصف المنفعة به ضرراً ، ونصف ظَرفه عَنَتاً ، ونصفَ لينه مشقَّة ؛ ويكون خيرُه نصفَ الخير ، أما شره فشر اثنين ؛ فهلاَّ كنتم من أهل بلادكم كالآب من أولاده : يرى حقَّ ضَعْفِهم أكبرَ من الحق الذى لقوَّته ، وواجبَ مرضِهم فوق الواجب لصحته ؛ فهو يبذل سَعَة نفسه فى ضيق أنفسهم ، ويحملهم صغاراً ليجعلهم كباراً ، ويصبر عليهم حَمقى ليجعلهم عقلاء ، ويرى عمره كأنه من بعض أرزاقهم وهو لايستخلف من العمر شيئاً ، وحواسَّه كأنها من بعض خدمهم وما له غيرُ حواسه ، ويراهم كأنما جاءوا إليه من السماء بعد أن اشتروه من الله ، وباعه الله منهم بتلك النقطة الشَّابِكَةِ

فيهم من دمه ؟

ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريث ، بدلا من هذه المواريث ؛ وجئتم بالسماد ، بدلا من هذا الوِساد [١] ؛ وبالبهائم للسَّوانى ، لا بالحلائل والغوانى [٢] ؛ وببضائع الحوانيت ، لا ببضائع أنطوانيت ... وليتكم إذ كنتم رجالَنا لم تغلبكم نساؤهم ، وإذ كنتم سيوفَنا لم تأسِرْكم دماؤهم ؛ ويا ليتكم لم تتنعموا وتتأنثوا ، فكانت البلاد تجد منكم أهلَ البأس ؛ ولم تتعلموا وتَتَخَنَّثوا ، فكانت الأرض على الأقل تعرف منكم أهلَ الفأس ... !

* * *

ذلك هو الرجل ؛ أما صاحبته فامرأةٌ فرنسية ، جميلة الوجه فى طلعة الصبح ، شابة الجسم شبابَ الضُّحى ، مُتَلَهِّبةُ الأنوثة كشعاع الظهيرة ، رقيقة الطبع رِقةَ الأصيل ، زاهية المنظر فى مثل شَفَق المغرب من تأنقها ؛ ثم هى تنتهى من كل ذلك إلى مَخْبر أشدَّ ظلمةً من سواد الليل ... ومن أين اعتبَرتها ألفيتها رذيلة مهذَّبة يترقرق فيها ماءُ العلم ويحول فى حسنها شعاع الفلسفة ، كأنها عينٌ فاتنة تدور فيها دمعةُ دلال !

ولم أكد أراها حتى أخذنى جمالُها ؛ فإن لها عينين رُكِّبتا

---

(١) الوساد : كناية عن الزوجة نفسها ، والمواريث : كناية عنهن أيضا

(٢) الحلائل : الزوجات ؛ والسوانى : جمع سانية ، وهى السواقى تدور فيها البهائم

تركيبا يجرُّ المصائبَ على القلب ، تُلقيان أشعةً ضاحكة أو عابسة يُخلَق منها للقلوبِ حوادثُ وتواريخ ؛ وترمى بنظرات تُبرئُ الصدورَ أو تُمرِضُها ؛ وتبسم بوجهها كلّه نوعاً من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية فى وجهها قُبُلات ؛ أما افترارُ شفتيها فهو جمال على حِدَة ، يشْبِهُ نقلَ معانى الخمر من فمٍ إلى فم ...

امرأة ساحرة لا أدرى إن كانت بُنِيَتْ على السحر أو على الحب ، ولا إن كان هذا الحب قد خُلق لعنةً عليها أم هى خلقت لعنة عليه ؛ والحبُّ دائماً بَرَكةُ امرأةٍ ولعنة امرأة ! والتى تزرعه فى كل مكان هى التى لا تحصد منه شيئاً ، فإن نالها شىء منه كان تعباً عليها رَوْحاً لسواها .

وأشدُّ مافى هذه المرأة الجميلة من الفتنة ، اجتماعُ شهواتها فى صوتها النَّدِىِّ المستَطْرِب المتحزِّن [1] الذى لا يخلو أبداً من حرفٍ تسمع فيه همْسَ قُبْلة من قُبلاتها !

بَيد أنى مع كل ذلك استعصمتُ بفلسفتى وحكمتى ، فلم أرها إلا فى مثل حريرة التفاحة : إذا أفرط عليها النَّضْجُ فابيضّت واحمرت وفاحت ولمعت وإنَّ العَفن لبادٍ من تحتها يُحَذِّر منها وينذِر ؛ وفى مثل فروة الدبِّ : استرسلتْ ولانت فى نعومتها ولكن لا منفعةَ منها إلا بقتل لابسِها وإزهاقِ الحيوان كلّه فى

(١) فيه نبرات الطرب ونبرات الحزن

سبيل الجمال الظاهر من جلده .

ونظرتُ إليها نظرة تخطَّت بها الشبابَ وأيامه ، فإذا هى بائسةٌ أمْلَقَ الدهرُ حسنَها [1] وكان ذهبا على جسمها وفضة ، وإذا هى عجوزٌ هالكة قد انحنت تحت لعنات ماضيها وتركتها دنياها كالسجن المتهدّم ؛ لا يُذكَّر مع انتقاضه إلا بلصوصه ومجرميه وعقابهم وآثامهم ، وتَشْقى بمعانيه بعد الخراب حتى حجارته وحتى ترابه ! ...

وأبصرت فى هذه الحسناء اللّعوب التى تَسْتَوْقِدُها الضحكةُ بعد الضحكة ، تلك الهامدةَ المريضةَ التى تُطفئها الحسرةُ بعد الحسرة ؛ وسقطت الشجرة الخضراء النامية فإذا فى مكانها جِذْع خشبىٌّ ملْقًى زَهِدَ فيه نورُ السماء وطين الأرض معاً !

وتمثلت لى هذه المتَّكِئةُ على طِرازها وأرائكها تتبرَّجُ فى سُندُسِها وحريرها ، فرأيتها ممدودةً فى حفرتها مُسَجّاةً بأكفانها قد هِيلَ عليها ترابُها ولم يرحمها راحمٌ ولا النسيانُ يستر رذائلها عند من عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها من دود الناس ... عشاقٌ آخرون من دود الأرض ؛ ويفنى جسمها حين يفنى ويبقى ضميرها الروحىُّ إلى الأبد ضميرَ مومس !

---

(١) أفناه ، وأفقرها منه ، كالاملاق من المال

فلما وضعتُ أمرَها على ما خُيِّل إليَّ من عاقبتها ، إذا هى تفور كما يفور النبع القذِرُ بالحمأة التى فيه [١] ، وإذا هى كالخشبة المتقدة فى حريقها : من فوقها ظُلَلٌ من النار ومن تحتها ظُلَل [٢] وإذا جمالها قد استحال فى عينىَّ وانفصل منها فأظهرها وظهر معها فى بريق الزجاجة من الخمر بجانب السكير المتحطم تتساقط نفسُه مرضاً وسكراً ، فكل ما كان فيها [٣] جمالا فهو فيه أقبح القبح !

ورَثَيْت لها أشدَّ رثاء وأبلغَه فى الرحمة والرقة ، حتى عادت نظراتُها تقطر على نفسى دموعاً سخينة كدموع الذل ! ويا حَرَّةَ قلبى من الإشفاق عليها وأنا أرى فى احمرار جمرتها سوادَ فحمها ، وفى أسباب سرورِها أسبابَ همِّها ، ويالهفى عليها إذ أرى هذه الجميلةَ التى لم تنظر أكثرَ ما نظرتْ إلا إلى خطيئة ، ترفع نظرها أحياناً إلى السماء بقوة فى داخلها ، كأنها تقول لمن يفهم عنها : إن هنا القَدَر وهناك المقدِّر ! ويا بؤسَها حين لم تَعُدْ تظهر فى روحى إلا كما يَتَخايَلُ ظلُّ القمر فى الماء : أنظر فيه الصورةَ

---

(١) الحمأة : طين أسود منتن ، والأخلاق السافلة هى حمأة الطينة الانسانية

(٢) قطع كقطع السحاب

(٣) أى الزجاجة

من غير معنى والضوءَ من غير قَبَس ، وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر !

✡✡✡

وأَلمَّتْ بما فى نفسى ، وكانت تقرأ فى وجهى قراءةً ؛ فإنه ليس ذو عينين ينكشف لعينيه سرُّ العاطفة الذى يَترَقْرق فى الدم إلا مَن خالط القلوبَ وغلب عليها بخيرِ مافى الخير أو شرِّ مافى الشر ، فهو يَتَدَسَّسُ إليها مع ملائكتها أومع شياطينها ؛ وإنما خُلقت هذه المرأةُ وأمثالُها فى هذا الجمال وهذا الظَّرف وهذا الفساد ، لتستطيع أن تمزج الشيطان بقلب من تغتَره [1] مَزْجَ المادة والمادةِ بواسطةٍ بينهما من قوةٍ ثالثة متهيئةٍ لهما معاً ، فهى بجوهرها مسلَّطة على القلب غالبةٌ على أمره كتسليط السرور والكآبة وغَلبتِهما طبعاً بما فطر الإنسان عليه .

وقلَّما لَصِق الشيطانُ بقلبٍ مالم تكن فى هذا القلب مادةٌ من اللذة أو الكآبة ، فكلتاهما كيمياءُ الخطيئة والمعصية والشك ؛ ولَرُبَّ عابدٍ زاهدٍ طاحت به كآبتُه فقذفته إلى النار كما تقذف بالفاجر لذاته ، فيلتقيان منها فى غَمْرة واحدة [2] وإن كانا فى العمل على طريقين مُتَدَابِرَيْن [3] . وما أشبهَ إسرافَ اللذةِ أن

(١) تطلب غرته وغفلته لتغلبه على فضيلته وعفته

(٢) الغمرة : موضع أكثر النار

(٣) أى مختلفين متناقضين

يكون الرجاءَ اليائس ؛ فالمُسْتَهْتَر بهذه اللذة يَغْلو فى استمتاعه غُلُوًّا من ظَلم نفسه لا يتحرَّج ولا يتورَّع [١] . وما أشبه إعْنات الكآبة [٢] أن يكون اليأس الراجى ؛ فالمبتَلَى بالكآبة يَجفو عما عداها جفاءَ منْ ظَلم نفسه لا يتَسَمَّح ولا يترخَّص [٣] . والنفسُ الغالية التى جاوزت قدْرَها ، كالنفس الجافية التى انحطت عن قدرها : كلتاهما على طَرَفِ يمينِ الشرِّ وشمالِه

***

ونظرتْ إلىَّ تلك المرأةُ نظرةً حَزَّتْ فى قلبى ، لأنها لا تسألنى المدحَ وكذلك لا تريد منى الذم ؛ وبعد أن رضيتْ أن تسمع لى كأنها تقرأ كلامى فى كتاب ، وواثَقَتْنى على أن تعتبرنى مخاطباً فكرَها دون شخصِها ، ومُحاوراً فلسفتَها دون تاريخها ، قالت : أحسبك لست كغيرك من الناس

قلت : ولا أنا كالملائكة .

قالت : فتعرف الخطيئةَ الإنسانيةَ وتقدرها قدرها ؟

قلت : وأعوذ بالله منها وأتحاماها !

---

(١) لا يمتنع من حرج أو ورع ، ولا يرعى قانونا ولا دينا

(٢) إرهاقها وشدتها على النفس

(٣) لا يتساهل فيما لا بد منه لنفسه ، وفى الحديث الشريف : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه » : أى المباح والمفروض معا

قالت : وتعرف ضعفَ الطبيعة ؟

قلت : ومعاندتَها وصلابتَها أيضاً

قالت : فكيف ترانى : ألستُ نصف المسئلة السماوية على الأرض ؟ وهل أنا إلا معنى متجسِّم من معانى القدَر ؟ وهل خرجتُ من سلالتى إلا كما خرجت الخمرة من عناقيدها ؟ وهل خُلقتُ جميلةً غالية كالدينار إلا لتُشْترَى بى بعضُ أوقات السعادة ؟

قلت : أما المسئلة السماوية فإن كنتِ نصفَها فقد كان الشيطانُ نصفَها كذلك ؛ وأما القدَر المتجسِّم فلعل الحريقَ فى بيتِ مَن نُكِبَ به أجملُ وأخف احتمالا ، وهو مع ألوانه الفنيَّة . . . حريق ، ولا يسمى أبداً إلا حريقاً ؛ وأما الخمر فهل هى إلا عُفونةٌ أُسكرتْ لأنها عفونة ؛ وأما الدينار الذى تشترَى به أوقاتُ السعادة فهو نفسه الذى يُغْرِى اللصوص ويُوجِدهم ؛ وإذا كانت هذه السعادة — كما تصفينها — فى نَشوة الخمر ، فهل تُشترى الخمرُ إلا وفيها سُكْرها ومَرَضُها وجُنونها ؟

قالت : فحدِّثنى لِمَ كان الحب إذن ؟ وهل خُلق إلا للاستمتاع به من حيث يتَّفق وعلى أحسن مايتفق ؟

فقلت : إنما خُلق الحبُّ قوةً ليقيَّد بقيوده كسائر القوى الطبيعية ؛ فأنتِ تَصدَعين عنه كلَّ قيوده وتتخذينه تجارة فى النفوس ، فلا تَرُدِّين يدَ لامس ، ولا تمتنعين على دعوى فيها ثمنها

... وبذلك تجرين مجرى القوة المدمِّرة ؛ ومن ههنا كان لك فى الاجتماع الإنسانى شأنٌ ليس كشأن المرأة ، بل كشأن المادة ؛ وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منكِ منزلة المطامع المعدَّة للحرائق ، وبعضُها بمنزلة السجون المرْصَدة للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيَّأ للتاريخ السيئ ؛ وما ظلمكِ الاجتماع فى شىء ، لأنك أنتِ فى نفسك ظُلْمٌ له ، وإن الدواء الذى يُبرئ من المرض لايُعد مرضاً للمرض ، وأهْوِنْ بذلك إذا عُد مادام يُبرئ من العِلة ، فإنَّ دَرْءَ المفاسد قبل جَلب المنافع ، ودرءُ المفسدة هو فى نفسه منفعة !

قالت : فكأنك تذهبُ إلى القول بأن مَثَلى مَثَلُ العقرب والحية وغيرهما مما لَدَغ أو نهش أو سمَّ ، وأنَّ دأبى فى الاجتماع كدأبها ، فليس لها إلا القتلُ حيث وُجدتْ ؛ ومَثَلُ الأوبئة والحميَات وما نَتَل وما أعدى ، فليس إلا مُدافعتُها أو الفرارُ منها فراراً بالحياة لا بشىء دونها ؛ وكأنى فى رأيك لست مخلوقة كالمرأة ، بل كحيوان للأذى والمقْت والخوف ؟

قلت : بل مخلوقة مثل كلِّ امرأة كانت وكلِّ امرأة تكون أو هى كائنة ؛ ولكن فيكِ من الزيادة عليها زيادة ماء السَّيل على ماء النهر ، وزيادةَ الحِدَّة على الطَّبع الرزين ، وزيادة الطيش على العقل ؛ فإذا طغى النهر فأفسدَ وخرَّب ، وفارت النفس

فحُمقَتْ واعتدت ، وطاش العقل فزلّ وأخطأ — نهض ذلك عندكِ عذراً فى وجوب التخريب والاعتداء والخطإ وتسويغها ، ووجب من ثَمّ أن تعتدل هذه الصفاتُ الجائرة على قلوب الناس وأن يطمئنوا إليها ويرضوها مُذْعِنين ، فلا يقيموا على النهر العاتى جبالا من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجناً من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم : إن كان عندك الفرار فعندنا القيود . . . ؟

قالت : كلا ، ماتبلغ بى الغفلة هـذا المبلغ ، ولقد درست وبحثت ، وفى هذا الرأس مافى رأس رجل عالم فلا تظن غيره ؛ ولكنى إن أجْن لا أجْن إلا على نفسى ، وهى لى وحدى وأنا حرة كيف أتولاها ، أفأنتَ رادّى إلى العبودية ؟

قلت : أنت حرة ماشئتِ وماوسعتك الأرض إذا كنتِ لنفسك ، وإذا كنتِ لا تتصلين بأحد من الناس اتصالَ العلة المهلكة أو المعجزة أو المذهلة ، أو اتصالَ الرذيلة السامّة بالدم النقى !

قالت : فإنى لا أتصل بأحد ، ولكنهم يُغْرَمون بى ويتنافسون علىَّ فأجد فى تنافسهم لذة من أمتع لذاتى .

قلت : وكذلك تَرْدِمُ الحفرة إذا اعترضت طريق السابلة وقاية لمن عساه يغفل فيعثر بها ؛ فإن بلغتْ أن تكون هاويةً

طبيعية لا حيلة فيها ومَرَدَتْ بها طبيعتُها المنخسفة ، ميَّزْناها بالعلامات وضبطناها بالحدود وسميناها بالأسماء وجعلناها آية التحذير من الهلاك ، حتى لا يزِلَّ أحد فيتردَّى فيها ؛ وإذا كان من لذتكِ أن تشهدى افتتالهم عليك ، فهذا حَسْبُكِ فى أنَّ من تعاستهم أن يقتتلوا ، وكنتِ ولا جَرَمَ فى لغـــة الاجتماع من بعض معانى الشقاء والتعاسة !

... ثمَّ إن فى تلك اللذة منك دليلا حيوانياً على أن فى طبعكِ من إناث البهائم الشاردة التى تقفُ ليتناحرَ عليها ذكورُها وقوفَ المملكة المباحة تنتظر المنتصر ؛ فتقتل بإباحتها كلَّ النفوس التى زَهَقَتْ حولها ، ولو هى لم تكن كذلك لم يكن شىء من ذلك ؛ فكنتِ ولا جرمَ فى لغة الاجتماع من بعض معانى البهيمة !

... ثم إن هذا وذلك فيكِ نذيرٌ بانقلاب الإنسانية ونزولها دون حدها ، وتراجعِها فى سبيل الجاهلية الأولى ، واتصالها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأنْ لم يكن علم ولادينٌ ولاتهذيب ؛ فكنت ولا جرَم فى لغة الاجتماع من بعض معانى الرذيلة والسقوط !

قالت : هم لا يتناحرون علىَّ بأنيابهم ولامخالبهم ولا قُرونهم ، وإنما يفعلون ذلك بأموالهم .

قلت : فلا جرَم كنتِ بهذا فى لغة الاجتماع معنى من معانى

السَّفَه والفقر والخراب !

قالت : ولكن كم من رجل أحبنى فرأى فىَّ آيةَ الإبداع الإلهى ، فكان لاينالنى إلا كما ينال المؤمنُ لذةَ قلبه .

قلت : فهذا أبدع الأصنامَ وسلَّطها على الهوى ، ثم سلَّطها بالهوى على كَهَنَتِها وعابِديها فما يرون الحجر المعبود حجراً إلا لأن عليه بناءَ مَلكوت السماوات ... ولا البقرة المؤلهة بقرةً إلا لأنها تجر مِحراث الوجود ... ولا الحشرة المقدسة حشرةً تَدِب دبيبَها البطىء إلا لأنها تحمل الخليقة ... لاجرَم كنتِ بذلك فى لغة الاجتماع معنى من معانى الضلالة !

قالت : أتحسب أنك أعييتَنى فى مأخذ الحجج واستنباط البراهين ؟

قلت : فماذا ؟

قالت : إنى أعُدُّ الزواج أسراً واستعباداً ، وقد بلغت من العلم مبلغاً لاأرى فيه أن تكون حريتى محدودة بسلطة رجل بين كلمتَىْ لاونعم ؛ فآثرت أن أتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه ، وعرفته لأتقيه على نفسى ، واتقيته لأبتلىَ به ولأُصرِّفه فى منافعى ؛ فليس لى فى الاجتماع زوج ولكن لى الحب ، وليس لى فيه أهل ولكن لى الجمال .

قلت : أفلا يتسلَّط على حريتكِ الدينارُ والدرهم ... وإذا

أنتِ بقيتِ للجمال فهل الجمال سيبقى لك ؟ وإذا كانت لك مُدةٌ فى الحب فهل هو خالد عليك ؟ ... ألا ترين أنك تزرعين فى أيام الحب بذورَ أيام الحسرة ، وأنك متى كَبرتِ عن سنّ المرآة ... (١) فستتهين لامحالةَ إلى أمد من العمر يخيّم عليك فى مُظلمةٍ كالقبر لانهار فيه ولا ليل ؟ وهل أنتِ من المجتمع الإنسانى إلا مَقامَ الصبى من أهله ، إذ لامَذْهب لك من دونه ولا غَنَاءَ فى نفسك إلا به ؟ أفترين للصبى أن يتفلت من نظام أهله ويتحلّل من آدابهم ثم لاتكون وسيلتُه إلى ذلك إلا أن ينقلب لصًّا بيتُه بيوتُ الناس جميعاً ، فليس له فى الاجتماع مال ولكن له السرقة .... وليس له فيه أهل ولكن له الحيلة ... بذلك ولا جَرَم كنتِ فى لغة هذا الاجتماع معنًى من معانى السُّخْرية والمَقْت !

قالت : فأنا فى الاجتماع تعاسة ، وبَهيمَةٌ ، ورذيلة ، وفقر ، وضلالة ، وسُخْريةَ ؟ ولكن ألستَ ترى هذه الصفات بعينها فى كل الناس على بعض التفاوت فى مقاديرها والتنوع فى أشكالها والاختلاف فى أسبابها ؟ وهل الرجلُ الفاجر إلا كالمرأة الفاجرة ؟

قلت : لقد فَجَر من الرجال من لاتحصيهم الملايين ، فهل

---

(١) سن المرآة : كناية عن زمن الجمال ، إذ هو العهد الذى تتخذ له المرآة حتى لاغنى لجميلة عنها !

علمت أن فاجراً منهم حَمَلَ تسعةَ أشهر ووضع ... ؟ ألا ترين أن الطبيعة جعلت لكلٍّ حكماً وهيأت لكل موضعاً ؟ وهل سواء فى طبيعة الألم وخَطرِه وعاقبته على الحياة أن يكون الدُّمَّل على ظاهر الجلد حيث يَتَلَذَّع على نفسه ويُرَى ويُحَدُّ ، وأن يكون فى باطن الجوف حيث يُخْشَى منه على غيره أكثر مما يُخاف على موضعه ؟

قالت : فكأن الرجل عندك أطهر فجُوراً ... من المرأة ؟

قلت : بل هو هى فى اللعنة والسقوط ، والنَّعلُ أخت النعل ... وائلتاهما على طِراقٍ واحد [١] ، ولكنه إن يكن أعقلَ من المرأة بفكره فهى أعقل منه بحواسها ؛ وإن يكن أقدرَ فى قوّته فهى أقدرُ فى عواطفها ؛ وإن يكن فى البَلِيَّة عودَ الثِّقاب [٢] .... فهى بعدُ الحريقُ كله ! ولذا كان من الطبيعى أن تُحاط المرأة فى الاعتبار بالمعانى الاجتماعية الكبرى : إذ كانت هى الغَرَض الذى تَمْتَثِلُه تلك القِسِىُّ الرامية [٣] : فهى فى معنى الكمال الأصل ، لأنها الأمومة ؛ وهى فى العفّة الأصل ، لأنها الزوجية ؛ وهى فى الحياء الأصل ، لأنها العِرْض ؛ وكذلك هى الأصل فى المعركة الجنسية ،

---

(١) أى قطع واحد ، يقطع جلد إحداهما على قدر الأخرى

(٢) عود الكبريت ، وهو قدحة من الحريق

(٣) أى ترميه وتستهدفه وتسدد إليه

لأنها المقاومة والمدافعة للرجل ؛ والأصل فى الفضيلة الإنسانية ، لأنها المنشأ والمربى للطفل ؛ والأصل فى الشرف الاجتماعى ، لأنها المثال الأدبى للجميع ... ومن ثم كان سقوطها سقوطاً لهذه المعانى كلها ، فهو تهدم الأساس لا الحائط ، وفساد الجذع لا الفرع ، وعلة نفس الاجتماع لا علة جسمه

هيهات هيهات ، فلن تشعر المرأة الساقطة إلا شعور من فقدت نفسها التى كانت نفسها وبدلت أخرى لا تلائمها ؛ فهى أبداً هائمة وراء نفسها الأولى تبحث عنها ولا تنساها ؛ لأن ذلك الأصل الطبيعى لا يزال يناجيها فى قلبها بلغة الأمومة والزوجية والحياء والفضيلة ؛ وما نفسها الشريفة إلا جواب هذه اللغة وهى ليست فيها ، فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم فى جريمة ؛ هى أشقى النساء ، ترى فى ذات عقلها البرهان العقلى على أنها امرأة ساقطة !

* * *

فتغرغرت عيناها بندى رقيق من الدمع وقالت : لما كنت فتاة ...

فقطعت عليها الكلام وقلت : فى تلك الفتاة كل البراهين فسليها ، إنها هى نفسك الهاربة منك !

فوجمت هنيهة لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهمالا ،

وجاءها الدمع الطاهر يجرى من أقصى الطفولة ؛ فخالطنى بثها وحزنها كأن دموعها تسقط على مواقعَ من نفسى !

فقلت : أتأذنين فى كلمة ؟

قالت : بل أسألك أن تتكلم ، فإن مدامعى هذه عرضت لى كالمطرة السانحة فى حَمِيم القَيْظ من صميم الصيف على أرض مُغبَرَّة مقشعِرَّة تثور سُخْطا على كل قدم تَطَؤُها ؛ وإن فكرى ليكلمنى الساعةَ بلسانك كما يَدْوى الناقوس بصوته العالى الرنان بعد أن كان هذا الناقوس مختنقاً فى بما يُطيف به من الضغط ، فكان لا يدقّ إلا دقاتٍ مُصْمَتَةً لا رنين فيها كأنه ناقوس من الخشب !

آه ! لقد كنتُ كالغدير الصافى : لا يَعرف ماؤه إلا وجهَ السماء وضوءَ القمرين وأخيلة النجوم وظلالَ الشجر والنبات ؛ فأصبحتُ كالماء الذى كَثُرَتْ واردَتُه من البهائم فهى تخْتبطه بأرجلها وتُضيف إلى وحوله وحولَها ، ولا تستعْذِبُهُ إلا أن تُغشى أعلاه بطبقة من أسفله ،[1] وكلما تراءت صورها فى كُدُورة الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية ، ولا تعلم أنه يَلعنُها بإظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تَعى !

أيحسبون أن قلب المرأة حين يُشترَى بالمال يكون أطهرَ

(١) كذلك تفعل البهائم فى الماء الصافى إذا وردته ، فتخبطه بأرجلها

من خزنة قَدَرة تتناولها يدٌ أقذر منها ؛ أو أثمنَ من فتاتٍ مائدة يُترك لحيوان أعجم ؟ ... ألا إن قلب المرأة لا يباع أبداً وإنما هى حين تبيعهم تبيعهم مَعِدتَها باسم القلب ... إنك إن لم تأخذ القلب هبةً ممن تحبها فما أنت من حبها فى (خُذْ) ولكن فى (هَات) وأخواتها ... ...

يحسب الناس أنه لا تفرّط امرأة فى الحب ما تفرّط المرأة الساقطة ؛ وما علموا أنها لا تجد الرجلَ فتجد الحب ! إنما الرجال فى عين هذه المرأة رجالٌ مَصْنُوعون ، فهى معهم امرأة مصنوعة يملك كلُّ رجل إغْضَابَها لأن صناعتها إرضاءُ كلِّ رجل ؛ ولعل هذا من رحمة الله بها ؛ فإن أكبر شقائها أن تجمع الأقدارُ بينها وبين رجل تحبه وتستهيم به ؛ إذ تَألَمُ لذلك ألماً خاصاً فيه تهكُّم الرذيلة والفضيلة معاً . إن هذا الرجل هو البَطَلُ الفذُّ الذى يكون فى قدرته أن يرجع لها ذلك العالَم الذى اطّرَحها ونبذَها ، فهو عندها يَغْمُرُ الناسَ أجمعين[1] ؛ ولكنها قلّما وجدته إلا لتعرف به حقيقةَ عارها . وإذا قُدِّر للأعمى أن يُبصر ساعةً واحدة ثم يرتدَّ إلى ظلامه ، فما أبْصَر ولكن تَضاعف له العمى !

المرأة الساقطة يائسةٌ من البُعُولة[2] ، وذلك عقاب حياتها ؛

---

(١) يكون فوقهم ويغطيهم فى نظرها واعتبارها

(٢) الزواج

ثم هى لا تندفع إلا فى الطريق التى تكرهها ، وذلك عقاب نفسها ؛ فالله أرحم من أن يزيدها بلاءَ الحب الذى هو عقابُ شرفها وفضيلتها ؛ فإن ابتُليتْ به فقليلا ما يتفق ذلك ، حتى إن الساقطة العاشقةَ عشقاً صحيحاً وتبقى ساقطة أندرُ وجوداً من البغىّ التائبة توبة صحيحة وتبقى بَغِيًّا .

✡ ✡ ✡

ياعجبا لضمير المرأة ! بَضِل فى ليل دامس من ذنوبها ثم تلمع له دَمْعَة طاهرة فى عينيها فتكون كنَجمة القطب : يعرف بها كيف يتّجه وكيف يهتدى وكيف كان ضلالُه . وكأن الله ما سلط الدموعَ على النساء وجعلها طبيعية فيهن إلا لتكون هذه الدموعُ ذريعة من ذرائع الحياة الإنسانية تحفظ الرقة فى مثال الرقة ، كما جعل البحار فى الأرض وسيلة من وسائل الحياة عليها[1] تحفظ الروح والنشاط لها

ثم قلت : كانت المرأة نصفَ الإنسانية فصارت ربعَها

قالت : وكيف ؟

قلت : ألا ترينها انقسمت فى هذه المدنية إلى قسمين متناقضين : الزوجةُ والـ ...

---

(١) لولا الماء الملح فى هذه البحار على الأرض لتعفن جوها

قالت : حسبُك ، خذ فى غير هذا فقد أبْتَتْك ذاتَ نفسى ومايَنفعك ولا ينفعنى أن تَنْقضَ السُّورَ الذى أقمتُه حول حقيقتى ؛ فإن كل قُوَى الكون عاجزة عن إرجاع ورقةٍ واحدة انتثرت من زهرتها !

ثم وثبت إلى البِيانة [1] فصدحت عليها بلحن من ألحانها كان صرخة من ضميرها صاعدة إلى عرش الله فى صوت الإنسانية الباكى !

ثم ابتسمتْ وسلمتْ ، فانصرفتُ وكأنى ما تكلمتُ ولا تكلمتْ ، وبقيتِ الأقدارُ مكانَها فما تأخرَتْ ولا تقدمت

✡ ✡ ✡

ليس على الهاوية أرضٌ تغطّيها فهل تغطيها الفلسفة ؟

وقد خَسَفَ بها قلبُها فى الأرض [2] ، فهل تُسَوِّيها الحجُج والمعاذير ؟

ولو كانت الحَصْبَاءُ فيها بين لؤلؤة وزمردة وياقوتة ،

---

(١) هى (البيانو) وقد استعمل بعضهم فى ترجمة هذه الكلمة : المزهر (بكسر الميم) وإنما هو العود ؛ واستعمل بعضهم (المضراب) ، وإنما هو ما يضرب به : كمضراب العود ، وجعلها بعضهم البيان (بكسر الباء) ، وليس فيها تماسك . والبيانة فى رأينا أخفها وأصحها وأفصحها

(٢) خسف المكان : أى ذهب فى الأرض

فهل من يدق عنقَهُ فى الهاوية ليموت على أرض من الجوهر ؟

الهاوية فى الطبيعة ، والساقطةُ فى الإنسانية : كلتاهما أرض كالمرأة وامرأةٌ كالأرض !

وكذلك يُخلق الطيِّبُ والخبيث « ليَميز اللهُ الخبيثَ من الطيِّب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض » !

الفصل الخامس

المنافق

وهـذا فلانٌ المنافق ، لايرى فى الحب أكثرَ من باء تنافق للحاء فهى تنزل عن تقديمها وتتأخر للتأخر [1] كما ينحط الرجل العاشق عن رُتبته ويقدِّم على نفسه المرأة وعنده أن هذا برهان طبيعى على أن الحب من غير نفاق هو حبٌّ من غير حب ؛ فالنفاق هو الأصل وحسْبُكَ به !

أعرف هذا الرجل كالحائط المُبْهَم [2] : من أين جئتَه استغْلَقَ عليك ورأيتَه رَدْما واحداً فلا مَنْفَذ لك فيه إلا أن تكون قنبلة آدمية فى القوة والشر ؛ لأنه رجُل المادة لاغيرها ؛ وهو كالمرأة الغادرة : حبُّها الرجلَ كلمةٌ على طَرَف لسانها ، ولسانها عَمَلٌ فى طريق منفعتها ؛ وهو كاللص : حُبه المالَ حاسةٌ فى يده ، ويدُه على مايملك الناس !

لَوْنُه فى الحوادث ألوان ، ودِينُه فى المنافع أديان ، ونفسه من الناس حَشَرَةٌ فى إنسان ؛ وإذا عرفتَه نظرتَ إليه كما ينظر المهمومُ لما جرَّ عليه الهمّ ، وإذا جهلتَه كان كالدواء المغشوش

---

(١) تقع الباء فى ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء.

(٢) الذى ليس فيه باب ولا نافذة

ذهب منه صوابُ العلاج ووقع فيه خطأ السّم !

والمنافق هو سياسيّ الحب والصداقة ؛ يضع المنفضةَ بين عينيه ثم تتوزّع على جوارحه كل أساليب الكلام والحركة والعاطفة ، فلا مخرجَ لك من عُقْدته إلا أن يَعْقِدَ هو بأسلوب وتحلّ أنت بأسلوب آخر ؛ وترى صداقته تنتهى أكثر ماتنتهى إلى مثل المقاطعة الحربية بين فَراعِنَةِ السياسة وشياطينها : يرمى الداهية منهم داهية آخر « بإنذار نهائى » حَاسِمٍ يحمل الزلازل فى كلماته ، ويَنْصِبُ للحساب ميزانَ الهوان والهلاك ، ثم يقول له فى آخره : « وإنى أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم احترامى الفائق » ! ...

ولن تجد شراً من هذا الأسلوب يَنْتَحله رجل ، إلا الأسلوبَ عينَه تنتحله امرأة ! ...

✡ ✡ ✡

واللهِ الذى لاإله إلا هو ، مارأيت كالمنافق رجلا ، إلا ذلك الواقفَ يُدير وجهَه بين مَرَائىَ عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ؛ فله فى كل واحدة وجهٌ ، ويتعدد الرجلُ وهو شىء واحد .

يخلق اللهُ كلَّ شىء ليكون شيئاً على الأصل الين الذى خلق عليه ، والأمر الميَسَّر الذى خُلق له ، وهو صريح ، اضح من جهتيه ؛ فالأشياء فى الطبيعة هى ماظهرت به مشيئة الله ،

تضر لأنها ضارة، وتنفع لأنها نافعة؛ ولكن المنافق كأنما خفيت مشيئةُ الله فيه؛ فهو من ناحية الإنسانية مخلوق للنفع فضرّ، ومن جهة الحيوانية خُلق للضر فنفع، وفى الرذيلة خُلق تلويناً للرذيلة، وعند نفسه خُلق لأنه خُلق!... فأنت تعرفه من جهة على قدر ماتنكره من الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين؛ فهو دائماً فى نفاقه مختلف على السرّ والعلانية، وعلى المذهب والغاية، وعلى المدخل والمخرج، وعلى القول والعمل؛ ومختلفٌ حتى فى كونه مختلفاً أو مستقيما!

ولو مددتَ عينيك فى عينيه لرأيتَه يتخاوَص لكَ بإحداهما [1] كأنك أبيضُ من شعاع الشمس وإن كنتَ قد خرجت من مصنع التجليد الإلهى فى جلد أسود؛ إذ تأبى إحدى عينيه على كل حالة إلا أن تُنافق ليظهر النفاق عليها. وهو من الذين يَمكُرون السيئات [2] ليلتهوا منها إلى حسناتهم، ويُقارِبُون الذمَّ ليخلُصوا منه إلى الحمد، ويَسفُلون ليرتفعوا. كما يبتدئ المِقلاعُ دوْرَته من الأسفل ليرمى بحجره رميةً عالية؛ ومهما انتحلوا من العلَل واختلقوا من المعاذير وقولهم إن ذلك سياسة ومُخالَقة [3] وظرف

---

(١) يقال: هو يخاوص، ويتخاوص: إذا غض من بصره شيئاً، ومع ذلك يحدق النظر، أو إذا نظر كما ينظر فى عين الشمس

(٢) يتحرون الأفعال السيئة ويقصدونها

(٣) مجاراة كل إنسان على أخلاقه

وأدب من الذوق ؛ فهم لا يأتون كل ذلك إلا لأن كل ذلك — عَلِم الله — هو النفاق .

وياليت علم الأخلاق كعلم الجغرافيا ، إذن لكان له من وجوه المنافقين مصوَّراتٌ ملوَّنة . . . ولاضطر العلماء أن يجمعوا من بعض السادة الكبراء مجاميعَ ويقيموا لهم مَعارض ! . . . وتلك حقيقة لم يفطن لها علَّامة القرود الفيلسوف (دارون) ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعةٍ أقبحُ مافيها وجوهُ عظماء الناس . . . ؟

✡ ✡ ✡

إن المنافقين من العامَّة وأشباه العامة بجانب المنافقين من الخاصة وأشباه الخاصة لكالشرر يتطاير عن الجمر : إن هو لَذَع لم يُحرق ، وإن لم يلذع انطفأ ؛ فإن خبثت منه شرارةٌ جهنمية وتلذَّعتْ ووقعت فيما تستوقده وردَّته حريقاً ، فما يجيء ذلك من كونها شرارة كبيرة ، بل من كونها جمرةً صغيرة ؛ فالشأن إذن فى هذا الجمر الذى يَتلظَّى بمادته ؛ لأن له مادةً استفادها من عناصر الأرض واجتمع منها غذاءُ النار فيه كما يفيد أولئك من المال والجاه والعلم والأدب وما إليها ؛ وإن شر النفاق ماداخلَتْهُ أسبابُ الفضيلة ، وشر المنافقين قوم لم يستطيعوا أن يكونوا فضلاء بالحق فصاروا فضلاء بشيء جعلوه

يشبه الحق !

ولعلَّ هذا النفاق هو أصغرُ رذائل الصغار وأكبر رذائل الكبار ؛ لأن للحاجة فى أولئك شِرعة ومِنْهاجاً ، وللضرورة أحكاماً وقانوناً ؛ فالعامىُّ حين ينافق لكبير من العظماء ويتخضَّع له ، إنما يوازن بين مايعرفه فى ذات نفسه من الصَّغار والضَّعة ، وبين مايتوهم فى صاحبه من الغَلَبة والقهر ؛ فهو يترقَّى إليه ليدنو منه ، أو يترقَّى إلى خديعته[1] لينالَه ، أو يترقى إلى كبريائه ليأمنه ؛ ثم هو فى كل ذلك نازلٌ على حكم الحاجة والضرورة ؛ ولو اعتبرتَ الرجلين على الحقيقة ووزنتَهما فى ميزان الأسباب ، لرأيتَ المنافقَ منهما مَن لم ينافق . . . ؛ لأن مالا يُخاض إليه إلا فى الوحل ، لاسبيل إليه إلا من الوحل ؛ وذلك العظيم رجل بناه النفاقُ فجعل بابَ نفسه عند قدميه ، فإذا أردت مفتاح هذا الباب فاحفض رأسك ، مامن ذلك بُدٌّ ؛ غير أن نفاق الكبار للكبار شىء أكبرُ من النفاق فى نفسه ، وإنما سُمِّىَ به تسامحاً وتجوُّزاً ، أو لأن اللغة تُنافق هى أيضاً . . . وإلا فنفاقهم إن كان صدقاً فأكبرُ فضيلتِه الكذب ، وإن كان حقيقةً فأعظمُ أدلتِها الوهم ، وإن كان علماً فأكبرُ شرفِه الجهل ؛ وهو التَّخشع ينقلب ضَرْباً من العبادة ، وهو الوصف المزوَّرُ يَرْجع نوعاً من الخَلْق الذى لم يخلقه الله ؛

(١) يتسبب لما يخدعه ، من ش . إلى ش .

ثم هم طبقات ولكلِّ نفاقها ، ولا تدرى أعلاها أسفلُها أم أسفلُها الأعلى ، ولكن الشر دائماً بالجملة ، وهم فى الجملة يتخلقون ويتصنَّعون بما نعرف وما لا نعرف ؛ والكبراءُ هم موضع الفصل والوصل فى بلاغة الاجتماع ، وكل رأس منهم فهو كرأس الشارع : لابدَّ لك أن تلتوى أو تنحرف إذا أنت بلغتَه ، فإما أرسلك فى طريق خير أو شر ، وإذا كان هذا فإن كل واحد من كبار المنافقين ومنافقى الكبار هو على التحقيق نقطةُ انقلاب فى أخلاق مَن حوله من الناس

* * *

إن مادة حوادث التاريخ هم أولئك العظماء ، فإنك لتجد الرجل العظيم فى أخلاقه العالية وسجاياه الكريمة ، وفى تأثير هذه الأخلاق والسَّجايا على الناس ـ أشبهَ بالفتح التاريخى لمبين ، وبالنصر القوى العزيز ، ويكون الرجل إنساناً ولكنه تاريخ ؛ وتجد إلى جانبه المنافق العظيم ... فى أخلاقه السيئة وطباعه اللئيمة ، وفى تأثير هذه الأخلاق الطباع على الناس ـ أشبهَ بتاريخ ضَربةٍ من ضَرَبات الله [1] ، أو بَجْزَرَة من بَجازر الحروب ، ويكون إنساناً ولكنه على ذلك تاريخ !

---

(١) ضربات الله : الأحداث الكبرى فى الناس : كالطوفان والأوبئة وغيرهما

ولا أعلم فى هذه الدنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر ؛ إذ الموجودات كلها مبنية على التحليل والتركيب ؛ وهذا النفاق فى أصله مبنى على الكذب السافل ، فإذا خرج منه شىءٌ خرج منه الكذب العالى ... فترى السياسى يبالغ فى النفاق ويزعم أنه يتكلم بلسان المستقبل ، وينافق الأديب فيقال زُخْرُفٌ من القول ومبالغة فى البلاغة ؛ ونفاق ذى السلطة تَوَاضُعٌ ، والنفاق من العالِم مَسلك من دقائق علم النفس ، ومن الغنى مالٌ يجذب مالا ، ومن السفيه اللئيم شرٌّ يطلب خيراً ؛ فإن هو كان من امرأة قيل حب ، أو من طفل قيل تحبُّب ، ... وكما تُرَدّ المركَّباتُ كلها إلى أجزائها المفردة ، فإن نفاق أهل الأرض جميعاً يرجع إلى الطفل الصغير كما يَنْبَثِق النهر العظيم على مدّ مجراه من المنبع ، وينتهى إلى مصبّه وقد جمع من أقذار طريقه على طول ما يمتد ! ... فنفاق الطفل يكون فى أصله مكافأةً عن محبة أهله وذويه ، ثم يكبر فيصح تودداً إليهم ، ثم يعظم فينقلب حيلة يحتالها العقل الصغير ليُخضع بها العقلَ الكبير لِهَنَاته وهَيَناته ؛ ثم لا تزال تُداخله بعد ذلك الأهواءُ والشهوات حتى يَنعصر نفاقاً بإذا هو ما هو

بَيْدَ أن ما يكون من نفس الطفل يكون معْفُوًّا عنه فى الأغلب ، كأنه ليس من نفس ، أو كأن هؤلاء الأطفال حين

يتوائبون ويقفزون فى اللعب واللهو يقفزون كذلك من حدود الشرائع... فللرجل من كل قاعدة حدّ محدود ليس وراءه إذا هو تخطّاه وتعمّده مجاوزتَه إلا حائطٌ من السجن أو حائط من اللعنة أو حائط من جهنم، ولكن الطفل يتخطى ذلك الحد وثباً ويكون قد وثب على السجن وجهنمَ بطبقاتها السبع ولا يقع فى واحدة منها؛ فمهما نافق الصغير فهو ذكىّ خبيث، ولكن نفاقه ينتهى بقبلة على خديه أو لطمة...

لا الصغارُ فى منازل العمر من الأطفال، ولا الصغار فى مراتب العُمران من العامة — يصلحون أن يقوم بهم النفاق؛ لأنهم جميعاً ينسحبون على أصل واحد من الطبيعة، وهو صِغَرُ النفس وانصرافها إلى معانى الجسم دون معانى العقل؛ فلو أنك رأيتَ طفلا ينافق لطفل مثله، أو شهدتَ عاميًّا من الناس يصانع رجلا من قياسه المنطق... لرأيت فى ذَيْنك نوعاً من الضحك الساكت، وفى هذين ضرباً من الوَقار الذى يُضحَك منه... إن عَظمة النفاق هى نفسها فى عظمة أهله الكبراء، وكل شىء قد يصلح موضعاً للبحث والنظر والجدال، إلا ما يعتقد الرجل العظيم أنه عظيم به؛ وهنا موضعُ التألُّه الذى شُرِع من أجله سجود النفاق وركوعُه وتهليله وتسبيحُه؛ فصغار العظماء كأنهم فى حاجة إلى النفاق، لأن فيهم شيئاً عاليا لا يظهر حد

علوّه إلا إذا قيس من نقطة سافلة ، ... فإذا أنت عرضتَ لهم على شرطهم فنافقتَ واستخذيتَ ونزلتَ عن كرامتك ، رأوك مع ذلك منافقاً عند نفسك فقط ؛ واحتجت بعد كل هذا إلى ضُروب أخرى من العَنَت الشاقّ على النفس ، حتى يعرفوا بعد أن يجهدك النفاقُ أنك منافق ؛ فلا تبلغ اليهم رذيلتُك إلا وقد صرتَ فى جملتك بمجموعةً من الرذائل !

* * *

وإنى لأحسب أن النفاق هو بقية ماوَقَرَ فى النفوس الجاهلة من عهدها الأول ، عهدِ التعبُّدِ لكل مايضرُّ أو يُتَوَهَّم فيه الضرر ، والتقديسِ لكل ماينفع أو يُظَنُّ فيه النفع ، وتكون أرواح الأصنام والأوثان والعُجول والبقر والحشرات والعواصف والصواعق وغيرها مما كان يُخَص بالعبادة قديماً — هى بأعيانها ماتتمثل فيه أرواحُ أولئك السادة الكبراء الذين يثقل ظلهم على الروح ثقلَ الضَّباب ، ويتراكم على القلب تَراكمَ السحاب ، ولا يرضون باباً من النفاق إلا أن يُفْضِىَ إلى باب ... ثم تكون أفعال المنافقين فى دِهانهم ومصانعتهم وما تتروَّح به أرواحهم ، هى فى ذاتها بقايا تلك الرِّعْدة والفزع والضَّراعة وتمريغ الوجوه والتمسُّح ، وما إليها مما صَغُرَتْ به أحلامُ لتكبر أوهام ، وكان عبادةَ أجسامٍ لأرواحٍ فصار عبادةَ أرواحٍ لأجسام !

والعظيم الذى تنافق له ولا يُنْكِر عليك ولا يَرُدُّك ، ثم لايرضاك ولا تُرضيه إلا على هذا النحو ، هو فى رأيى رجُل خرافىّ من المعبودات الأولى يحتاج إلى نبىّ يمحوه ، فإن لم يكن نبىّ فرجلٌ حكيم يكشف للناس عن وجه الخُرافة فيه ، فإن لم يكن فذو عزيمة يصولُ به أو يستطيل عليه ، فإن لم يكن فذو دِين وتقوى يُريه وجهَ السماء من دينه وزُهده ، فإن لم يكن فذو علم يقنعه أنه كان تراباً وسيكون عظاما ورُفاتا ... فإن خلا قومُه من كل أولئك فقد زيَّن لهم (الشيطانُ) أعمالهم ، وقد رفع الله عنهم يدَه فلا يبالى فى أىّ وجه هلكوا !

✡ ✡ ✡

أما إنه لاينافق إلا الخبيثُ الذى يحاول أن يَقتحم النفوسَ وهى غافلةٌ عن أبوابها ومَنافذها ، فنفاقه من التلصُّص ؛ وإلا الضعيفُ الذى يريد أن يقوى بضعفه فهو يحتال على أن يأخذ القوىَّ من أضعف مكانٍ فيه ، ونفاقه من المكر والخداع ؛ وإلا الغاصبُ الذى يطمع أن يكون الشىءُ له وليس له ، ونفاقه من الظلم ؛ وإلا القوىُّ متى أراد أن يسوق بقوته مَسَاقَ الضعف لينال بها من غير أن يؤذى ، فنفاقه من الكبرياء ؛ والخامسةُ أن روعة الحب فى عاشق تنافق لروعة الحسن فى معشوق ... !

وكذلك لايرضى عن النفاق ولا يُقِرُّه الا جاهل اكتفى من

العلم قبل أن يعلم ماهو العلم ، أو مُسْتَكْبِرٌ عَمِيت نفسه عما حولها وعما فوقها ، أو غبيّ يعرف عقله فى وهمه ووهمه فى عقله ولا يعرف عقول الناس ، أو ذو سلطان دنَت مِحْنته وأظلتْ مُلْكَهَ النَّقمة فهى تسلك إليه سُبلا مختلفة منها فسادُ الناس ومنها النفاق ؛ والخامسة أن يمتلئَ نظرُ الجميلة رضا وسحراً حين يمتلئُ فمُ المحِبّ نفاقا فى هواها ... !

وأنت فكيف اعتبرتَ النفاق رأيته كذباً وخداعا ، ثم مكراً ومُصانَعةً فى الحق ؛ فإن هو فشا فى طائفة من الناس ألفيتهم فى الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على ألا يصدقوا ولا يَنصحوا ولا يأنَفوا ولا يُقارِبوا الحق ؛ فإذا كثر هذا السوادُ فى شعبٍ رأيتَه لا يُحسنُ من الحياة الا الأسبابَ التى يقتل بها نفسه إن كان قويا ، ولا يهتدى لغير طرق الفقر إن كان غنيًّا ، ولا ينفع إلا أعداءَه إن كان شعباً ذكيًّا ، ولا يعمل إلا على السُّخرة لغيره إن كان عاملا فَتِيًّا !

* * *

وكل منافق وصاحبه الذى ينافق له ، رجلان لا يَفهم أحدُهما الآخر ؛ أو تكون بلادة الحس قد بلغتْ من أحدهما أن يتظاهر بأنه لا يَفهم وبلغَت الغِلْظةُ من صاحبه أن يظهر كأنه غير مفهوم ؛ وكلاهما غطاءٌ مُكْفَا على حقيقته ، ولكن الحقائق المغطَّاةَ بأغطية

الكذب موضوعةٌ أبداً على نار تتقد من عزائم المصلحين ونفوس الحكماء وقلوبِ الأحرار ، فلا تزال تغلى كلما طال بها العهد حتى تنفجر من أغطيتها ، فإذا الزورُ قد طاح به ماانكفأ عليه ؛ وكان ذلك من سنَّة الله فى إصلاح الناس ؛ وكان من سنَّة الله كذلك أن تجد الناس ينافقون جميعاً ، إلا مُصْلِحاً أو حكيما أو رجلا حرَّ النفس !

الفصل السادس

الصغيران

والآن أرى السحاب رقيقاً مُهَلْهَلًا كأنه فى سَرَقَةٍ من حرير أحمر [1] ، يشرق إشراق الروح فى الطفل الصغير الذى كَفَلَتْه رحمةُ الله فتركته إذا ضحك استَوْضَحَتْ له من الضحك معانٍ لانهاية لها ولا يعرفها الناس ، فما ينفك من شىء يُضحكه أو يسره ، وإذا بكى لم يجد للبكاء إلا معنى واحداً من تلك المعانى الكثيرة التى يعرفها الناس ؛ فهم لاينفكون من البكاء أو معانيه فى هموم الحياة !

تقوم الطفولة فى روحها وعهدِها وحوادثها على عقيدة واحدة ، هى أن كل ماكان فسيكون غيرُه ؛ وهى تعرف ذلك يقيناً جَزْماً لاشك فيه ، وحكما فصلا لامَعْدِل عنه ؛ فالصغار على أىِّ أحوالهم هم كبار الناس فى هذا المعنى

إنك لتعرف الرجلَ لا بأس بعقله ، ثم تراه فيما ينزل به من الحوادث فإذا هو من النفرة والهم والقلق صورةٌ كاملة من اضطراب فكره فى حكمة ما ابتُلى به ؛ فإذا نظرت إلى الطفل فى مثل ذلك رأيته صورة أخرى من نفس حزينة راضية

---

(١) سرقة الحرير : هى القطعة من النوع الجيد منه فتكون رقيقة مشرقة

مستسلمة قد أقرّتْ فيها رحمةُ الله بحكمة الله ؛ فالحزنُ فيها سببُ الهمِّ ولكنه كذلك سببُ الأمَل !

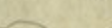

جلستُ ليلة مع صُحْبَةٍ من الأدباء فى نَدِيٍّ [١] على عُنُق شارع كذا بالقاهرة ؛ وكنا فى الوقت الذى يُقبل فيه الليلُ على أعماقه قبل أن ينتصف بمنزلة واحدة [٢] ، تلك الساعة التى هى أول عهد الليل بالتنفس تحت الأجنحة السماوية [٣] ، تنزل لِتَخْتِمَ على أعمال الأرض فى يومها الغابر ، ثم تأخذ فى تهيئة الجمال السماوى البديع الذى سيُخْلق منه الفجر !

وكان إلى جانبى أديب سِكِّير ، نسميه « دِمْياط الحانة » ... لأن فرعاً من نهر الخمر ينصبُّ فيه كما ينصبُّ فرعُ النيل عند (دمياط) ! وقد عودتْه الكأسُ أن يتخذَ الليلَ نهاراً والنهار ليلا ، فما ينصرفُ إلى بيته إلا فى فروع الصبح [٤] ، ولا ينام إلا والعالم كله متيقظ ؛ ويزعم أنه لا يهتدى إلى عقله إلا إذا أضاعه ساعة أو ساعتين [٥] ؛ ولا يُحسن تصفية الكلام وترقيقَ

---

(١) قهوة
(٢) أى ساعة
(٣) كناية عن الملائكة
(٤) أوائله وأعاليه
(٥) كناية عن السكر

المعانى إلا إذا نضح جوفه بماء الشعر [١] !

وكان فى تلك الساعة قد حطَّ عليه الساقى حتى انتهى فى سماواته الوهمية إلى الأفق الزجاجى ، فعاد كلامُه رنيناً وطنْطَنة لا يفهمه إلا صاحب الحانة وحده ... فلما دَهتْه الداهيةُ من كَرْب الخمر ، تخطى حدَّ إنسانيته إلى البهيمية السائمة ؛ وماكاد يرتفع الستار الإنسانى عن مسرح أخلاقه ، حتى رأيتُنى فى رواية عجيبة يمثلها أربعة اجتمعت أرواحها فى شخص واحد : سفيهٌ ، ومعتوهٌ ، وأحمقُ ، وأديب ... !

وجعلت أتأمل على يقين الخِبْرَة وأشهد على حقِّ النظر عجيبةَ هذا العقل الإنسانى الذى يسبح فى الأفلاك ، ويتطوح من شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم بوثبةٍ أسرعَ من ضربة الجَناح ، ثم هو مع ذلك يغرق فى زجاجة خمر ؛ وصرتُ أرى كيف يتحول النبوغُ العقلى فى بعض ساعاته إلى صناعة خسيسة ، هى صناعةُ الأديب نفسَه الشريفَة بهيمة من البهائم ؛ وعلمت عِلْمَ هؤلاء الأدباء الذين يحسبون الخمر تُوحى إليهم وما فى مِلْء الدَّنّ منها ما يعدل فائدة نقطة واحدة من قوة الإرادة

لقد رأيتُ وعلمتُ وشهدتُ بعينَىَ رأسى كيف يَبُوءُ هؤلاء

---

(١) كناية عن الخمر

بالمآثم والمَغرَم جميعاً ؛[1] وتالله إنه لأيسرُ على الباحث أن يجدَ الشرابَ الذى يغترفُ منه الظمآنُ بكفيه ماءً زُلالا ، من أن يعثر على الكأس التى يقتبس منها السكّيرُ فضيلة أو فائدة

ولو رجع الأمر إلىّ لما جعلتُ عقوبةَ الخمر إلا تحطيمَ الزجاجات على رءوس شاربيها ؛ وهب أن رأس الأديب السكير هو رأس أرِسْطو علما وذكاءً ؛ فذلك أدعى لتحطيمه ، لأنه لن يكون فى عربدته وسكره وانحطاطه وسقوط همته إلا رذيلةً يدافع العلمُ والذكاءُ عن وجودها ، فينصبها الشيطانُ مثلا للتقليد ويتخذها الأغرارُ والضعفاء قاعدة للباطل المتبع ، يَعملون على احتذائها ، ويتحولون عن فضيلتهم بحُجتها ؛ فيصح هذا الرأس الواحد كالمطبعة : متى حَبرها الطابعُ نقلت ما فيها « بحروفه » إلى كل الصحف البيضاء التى تلامسها !

* * *

... وفى تلك الساعة كانت الأرض قد عَرِيَتْ إلا من أواخر الناس وطوارقِ الليل وقبيّة من يَقظة النهار تحو فى الطرق ذاهبة إلى مَضاجعها ؛ فبينا أمدُّ عينىّ وأديرهما فى مُفْتَتَح الطريق ومُنْقَطَعه ، إذ انتفضت انتفاضةَ الذُّعر ، ووثبتْ رَجّةُ

---

(١) المآثم : الاثم والذنب ، والمغرم : ما يغرم عليه من المال ، قاتلهم الله ! يشترون بأموالهم « تذاكر الدخول إلى جهنم » ...

القلب بحسى كله كما تثب اللسعة بملسوعها ؛ ذلك حين أبصرت الطفلين ...

صغيران ضَلاَّ من أهلهما فى هذا الليل ، يمشيان على حَيْدِ الطريق [١] فى ذلة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء والتخاذل لاتمشى بل تتزحزح قليلا قليلا فكأنهما واقفان . أكبرهما طفلة تَعُدُّ عمرَها على خمس أصابعها ، والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات ؛ ينحدران فى أمواج الليل وقد نزل بهما من الهمّ فى البحث عن بيتهما ماينزل مثله بمن تُطَوِّحُ به الأقدار إذا ركب البحرَ المظلم ليكشف عن أرض جديدة

تَتَبَيَّن الخوفَ فى عيونهما الصغيرة ، وتراه يفيض منها على ماحولهما ، حتى ليحسب كلاهما أن المنازل عن يمينه وشماله أطفالٌ مذعورة ! ...

ويَتَلفتان كما تتلفت الشاةُ الضالة من قطيعها : لايتحرك فى دمها بالغريزة إلا خوفُ الذئب !

---

(١) هو التلتوار : أى جانب الطريق . عن ابن سيده : « حيد الجبل : شاخص يخرج منه ، وجبل ذو حيود وأحياد ، إذا كانت له حروف ناتئة فى أعراضه » . قلت : وهذه صفة التلتوار إلا أنه غلظ فى جانب الطريق لا فى جانب الجبل . وبعضهم يترجم التلتوار بالأفريز ، وهى كلمة مشتركة ، أكثر ماتستعمل فى النقوش البارزة ، وبعضهم يستعمل الطوار (بفتح الطاء) ، ولكنه للدار مايمتد معها من فنائها ، وبعضهم يستعمل البرزوق ، وهى ثقيلة نافرة ، ولاأفصح وأخف من الحيد ، تقول : حيد الطريق ، وللشارع حيدان ، وحيود الطرق وأحيادها ، وعلم جرا

ويَتَسحَّبان معا وراء الأشعة المنبثَّة فى الطرق ، كأن أضواء المصابيح هى طريقُ قلبَيهما الصغيرين .

منقطعان فى ظلام الليل ، وليس على الأرض أهنأُ من ليل الطفل النائم ؛ فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع ؟ نامت أحلامهما واستيقظت أعينهما للحقائق المظلمة الفظيعة ؛ وضاعا من البيت ويحسبان أن البيت هو الضائع منهما ... طفلان فى وزن مثقالين من الإنسانية ، ولكنهما يحملان وزنَ قناطيرَ من الرعب .

يامَن لاإله إلا هو ، من سِواك لهاتين النملتين فى جُنْح هذا الليل الذى يشبه نقطة من غضبك ؟ لقد أخرجتَهما فى هذا الضياع مخرجَ أصغرِ موعظة للعين تذَبُّهُ أكبر حقيقة فى القلب ، وعرضتَ منها للإنسانية صورة لو وُفِّق مخلوق عبقرىٌّ فرَسَمها لَجَذَب إليها كلَّ أحزان النفس !

صورة الحب يمشى مُتسانداً إلى صدر الرحمة فى طريق المصادفة المجهول من أوله إلى آخره ، وعليهما ذلّ اليتم من الأهل ، ومَسْكنةُ الضياع بين الناس ، وظلامُ الطبيعة وكآبتها !

رأيت الطفلة وقد تَنبهَتْ فيها لأخيها الصغير غَريزةُ أمٍ كاملة ، فهى تشدُّ على يده بيديها معا كأنها مُذْ علمتْ أنها ضائعة تحاول أن يطمئن أخوها إلى أنه معها ، ولن يضيع وإنه

معها [١] ! فيالرحمة الله !

وقد أسندتْ مَنْكِبَه إلى صدرها وهى تمشى ، فلا أدرى إن كان ذلك لتحملَ عنه بعضَ تعبه فلا يتساقط ؛ أو ليكون بها أكبرَ من جسمه الضئيل فلا يخاف ؛ أو لأنها حين لم تستطع أن تُفهِمه مافى قلبها بلغة اللسان أفاضته على جسمه بلغة اللمس ؛ أو لاهذا ولا ذاك ، إنما هى تستمدّ من رُجولته الصغيرة حماية لأنوثتها بوحى الطبيعة التى رسخت فيها !

أما الطفل فمُسْتذِلّ خاشع ، لو تُرْجمتْ نظراتُه لكانت هذه عِبارتها : اللهم إن هذا العمر يومٌ بعد يوم ، فأنقذنا من بلاء يومِنا !

ولما وقفنا بإزائنا ، كان هذا الصغير يقلب فى وجوه الناس نظراتٍ يتيمة ترتد على قلبه آلاما لارحمةَ فيها ؛ إذ يشهدُ وجوها كثيرة ليس لها ذلك الشكل الإنسانىّ المحبوب الذى لايعرفه الطفلُ من كل خَلق الله إلا فى اثنين : أُمّه وأبيه !

وما أسرع ماتناهض الناسُ وأطافوا بهما ، وما أسرعَ مالاذَ المسكين بأخته واستمسك بها ؛ كأن وسائل الرحمة تُخيف كما تخيف أسلحة « الجرّاح [٢] » ، أو كأن الأصل فى هذا الإنسان

---

(١) حالة أنه معها ، وهو تركيب من أبدع الكلام

(٢) الجراح كلمة محدثة ، وصوابها الجراحى فى اللغة القديمة ، ولكن الأولى أفصح ولا بأس بها لغة

هو العُدْوان على أخيه وظلمُه واجتياحه ، فكل حركة إنسانية مشكوكٌ فيها حتى يقع أثرُها ، لأن الإنسان نفسَه سِتار مُسْدِلٌ على نيته ، وهذه النية آلة للأطماع ، فلا تزال فى يد الكذب دائما لايدعها للصدق إلا فيما لا « ينفع » . . .

وكان الطفلُ المسكين فى جملة النظر إليه ، خَلْقا من الحب المؤلم الذى يُلهِبُ الدم ؛ يرسل من عينيه الدَّعجاوَيْنِ سحرَ المَذَلةِ الفاتنة ، تلك المذلةِ التى أعرفها أقوى مافى الحب إذا تذللت الحبيبة فى نظرة ضارعة ترسلها لمحبها المفتون ، فلا تُبقى فى رأسه رأيا ولا فى قلبه نية ، وتذلُّ له ليَذلَّ هو لاغير ، كأنّ أحبَّ العزِّ فى أحبِّ الذل !

ونظر إلىّ أنا أولَ رَمْقَة ، فذكرت أطفالى ؛ فتَزلْزَلَ قلبى وأحسست أن دمى استحال إلى بارود وقع فيه الشرر !

وهؤلاء الأطفال الصغار هم إنسانية على حِدَة ، فكل أب هو أبو هذه الإنسانية كلها ؛ ولن يُطيق من كان له طفل أن يرى صغيراً ضائعاً فى الطريق يستهدى الناسَ إلى أهله ويبكى عليهم ؛ أو طفلا جائعاً يعرض على الناس وجْهَه المنكسرَ ويستعطفهم بصوته المريض أن يُطعموه ؛ أو طفلا يتيما قد ثَكِل أهلَه وصاق بقسوة أوليائه فانطرح فى ناحية يبكى ويتفجّع ويسأل من يعرفون الموت : أين أبى ؟ أين أمى ؟

هؤلاء جميعاً ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات حجاب ؛ إذ ليس فيهم من الناس إلا اضطرارُهم إلى الناس ؛ فهم الإنسانية الرضيعة التى خُلق من أجلها القلبُ الإنسانى فى شكل ثَدى .

* * *

واطمأن ذلك الطفل إلى صدر أخته ومال برأسه عليها ، ثم أطلق عينيه فينا جميعاً ، فما حسبتُه أراد ألا أن يَخبأَ فى قلبها أفكاره الصغيرة ثم ينظر إلى هؤلاء الناس نظرات مجردةً بَلْهاءَ كما ينظرون هم إليه ؛ إذ لم ير فيهم من فَتح له ذراعيه ، ولا من حمله ، ولا من تحَنى عليه ، ولا من ضحك له ، ولا من أعطاه شيئاً يأكله !

ألا إنما الناس صُوَرُ الفكر وصورُ القلب ، فما لم نر فيه صورة من أفكارنا التى نلتمسُها أو من أهوائنا التى نحبها ، فذلك ليس منا ولسنا منه وإن سُمِّى أخاً فى لغة النفاق ، وإن دُعِى حبيباً فى لغة المجاملة ؛ بل هو مخلوق ليكون النموذج الذى نتعلم عليه البغض إن كان متصلاً بنا ، أو التسامُح إن كان بعيداً عنا ولم تتصل بنا ولا أخبارُه ...

وكم بين الناس من اسمٍ تعرفه على صاحبه كهذا النور الأحمر الذى يضعونه فى الطرق فيضيئونه من الليل فوق الحُفَر ...

لِيُنْذِر الناسَ ما وراءَه ويقولَ لهم بصوت النور : ههنا ما ينبغى أن تحذروه ، ههنا حفرة ... !

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فهم منقسمون حين يولدون أسْباطاً أسباطا باختلاف الدم فى كل أُسْرة ، وهم متفرقون حين ينشئون أفواجاً أفواجا باختلاف الصحبة فى كل فِئة ، وهم مُتَباينون حين يتدفَّعون أحزاباً أحزابا باختلاف الهوى فى كل طائفة ، وهم متناكرون حين يتنازعون أمماً أمما باختلاف المنفعة فى كل أمة : فتلك أربعةُ وجوه تلبسها الإنسانية فيهم ؛ ومن ثَمَّ قُضِىَ على هذه الإنسانية المسكينة فى الأرض أن تكون ثلاثة أرباعها عداوة ، كالأرض نفسها : ثلاثة أرباعها ماءٌ مِلح لا يُساغ ولا يشرب ، وإنما منفعته للكون كله فى الجملة ! ... ولعل شيخاً من الشيوخ لو تدبَّر حياته وأحصى أقدارَها وميَّز أنواعَ حوادثها وما أتى عليه فيها من أولها إلى آخرها ، لرأى ثلاثة أرباعها ملحاً أيضاً ... !

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فليس يَأتى للوالدين أن يربُّوا من أولادهم ناساً ، بل أهواء ومطامعَ يناقض بعضها بعضاً : مطامعُ تتبع أسبابها ، وأهواءُ ترجع إلى غرائزها : فلو أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظاهرَ دنياهم حتى يكون سواء لا يخالف شىء منه على شىء : لبقىَ

الانتقاض والاختلال فى باطن الإنسان حتى لكأن بعض الدم يُخلق غالباً على بعض الدم . وإنه لا شىء فى هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده ، فإذا استقامت الأمور فلمن تكون الأضداد لَعَمْرى ؟

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فدنيا كل إنسان فى شيئين : ما يَنْزِعُ إليه بفكره ، وما يميل إليه بقلبه : والإنسان من كل إنسان أحد اثنين : من تُرْجَى به المنفعةُ ، ومن تكون فيه المحبة ؛ والإنسانية من كل إنسان فى منزلتين : أدنى الحب ، وتلك منزلة الصداقة ؛ وأعلى الصداقة ، وهى منزلةُ الحب ؛ فأما ما وراء ذلك فصحراءُ الإنسانية الكبرى المقفرةُ من قلب الشخص وفكره . ولولا الأديان لخربت الدنيا ، فإن هذه الأديان قد عَمَرَت هذه الصحراءَ بعنصرين جليلين أنبتا فيها القلبَ والفكر ، وهما : خوفُ الله فى خلقه ، ومحبةُ الله فيهم ؛ فحيثُ وُجِد هذا الخوف وهذه المحبة ، وُجدت الإنسانية ؛ وعلى ذلك فالإنسانية العامة الحقيقية هى الإيمان ، والإنسان العامُّ الصحيح هو المؤمن والسلام العامُّ الكامل هو الله جلَّ جلاله

ولكن يالشَقاءِ الانسان التَّعس ! إن أعجب ما فى الشر أن اختلاف الناس فى فهم هذه الثلاثة هو أصل الشر !

✡ ✡ ✡

وسألوا الطفلين أسئلة سياسية ... ماوطنُهما ؟ وماجنسُهما ؟ أى من أى شارع ومن أى والد ؟

ألا ضلَّ ضلالُكم أيها الناس ! فلو أنهما يعرفان من أى شارع ومن أى والد لما كان منهما ماترون : على أن الطفلة لَجلجت فى بعض كلمات تشبه اضطرابَ قلبها ؛ وكان الصوابُ كله ماثلا لعينيها مجتمعاً فى ذهنها ، فالبيت والشارع والأبُ والأم كل ذلك واضح فى خيالها ؛ ولكن الذى استَبهم عليها هو تحديدُ نسبته إلى هذا الوجود الذى تراه كله بيوتا وشوارع ورجالًا ونساءً . وإنما تحديد الشىء هو تعبير الطبيعة عنه ، وإنما تعيين نسبته من غيره هو تعبير الشىء نفسِه عن خصائصه ؛ فإذا أنت عرفتَ نسبتك من سواك ، وحصرت هذه النسبةَ فى حدودها وأسوارها ، فقد أمنتَ الخطأ فى سعادة نفسك ، وأصبحت بتلك المعرفة أسعد إنسان .

ولكن مَن لك بهذه المعرفة وبهذا التحديد ، وقلوبُ الناس كافةً كأمواج البحر فى البحر : تظهر كلُّ واحدة قائمةً بنفسها فى رأى العين وهى راجعة فى جميعها إلى أصل واحد ، هو هذا السَّيال المتحرك الذى يَتَضَرَّبُ بعضُه فى بعض ليوجِدَ الأمواج ويفنيَها .

ما أرانى أعرف بعد طول الفكر سببا للشقاء الإنسانى يجمع كل ضُروبه إلا سببا واحداً : هو أننا مُعَدُّون لكل الحالات المختلفة التى تَطرأ على الحياة بقلب من نوع واحد : فإذا استطعنا أن نجعل ظواهرَنا موضعَ الترتيب ، فإن بواطننا أبداً موضعُ الاختلاط والألم والنكد ،

* * *

ولما رأيتُ حيرةَ الطفلين ، ضممتها إلىَّ وألهيتهما عن كآبة القلب بسرور البطن ؛ فدفنتُ كلَّ آلامهما فى بعض قطع من الحلواء : فَطعما واستضحكا وتطعَّما الحياةَ جديدة آمنة .

والطفل لا يعرف مستقبلا ولا ماضيا ، وماهو إلا حاضرُه فإن عُنِيتَ بأمره فأوْجِدْه مايلهو به ، فهذه هى سعادة الطفولة ؛ ولقد سرَّهما من الأديب الكبير الذى كان إلى جانبى أضعافُ ما سرهما من الحلواء ، بل كان زيادةً فى حلاوتها : فحسباه يتعمَّد بَسْطَهما وإيناسَهما بحركاته وبكلامه الذى يطن فى السماوات الزجاجية : فكانا يضحكان منه ، وكلما تكلم أو أشار أو تحرك أو أنكر عليهما ، استخرج بذلك منهما مثلَ تغريد العصافير : فكانت كل الفائدة من سقوطه وضياع عقله أنه أضحك طفلين ... !

وقدَّرت فى نفسى أنهما من هذا الشارع الذى نحن فيه ، أو

من فصيلته فى الطرق التى تخالطه أو تقاربه ؛ وقلت إن أهلهما على أثرهما ؛ فجعلت أستأنى وأنتظر ؛ وبينما نحن على ذلك ، إذ ارتفع سوادٌ مقبل كأنه روحُ ليلةٍ مظلمة تَغشَى الطريقَ ؛ فتبينتُ فإذا امرأة تهفو كذات الجناحين ، وكأنها تنساق بقوة تحترق فى داخلها ؛ ثم أخذتنا عيناها فإذا هى أُمّ الطفلين ، تبدو من لهفتها واستطارتها لولديها كأنما تحاول أن تختطفهما من بعيد بقوة قلبها ؛ وما عرفتُ أنها هى إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها ملموسة فى نظراتها إلى الصغيرين ؛ وكانت لها هيئةٌ هيئةَ أُمّ (١) وُضعت الجنة تحت قدميها ، فترى فى وجهها معانى ليست من هذا العالم ، وليست من الجنة نفسها ؛ إذ تزيد على كل مسرات الدنيا هَناءَة الاطمئنان السعيد المفاجئ الذى لا يكون فى الحياة إلا هُنَيْهة ثم ينقطع ، وتزيد على ماهناك هذه اللهفة اللذيذة التى لا توجد إلا هنا على الأرض حينما تَفجأ السعادةُ بعد شقاء لا يُحتمل .

إن من لم ير أُمًّا أشفى طفلُها على الموت فى حادثة أخذته بغتة ثم نهض سليما معافى ، أو ضلَّ عنها مدة حتى يَئِسَت منه ثم اهتدت إليه — لا يكون قد رأى شيئاً من سعادة الإنسانية

---

(١) هذا من تراكيبهم البليغة ، وهو تكرار تستعمل فى إثارة النفس وتنبيهها فيقع منها أى موقع . والكلمة الثانية تنصب إذا أريد بها الحدوث .

العالية النادرة التى لا تكون إلا فى الأمهات خاصة ، ولا يشهدها الناس إلا فى ساعةٍ حَرِجَةٍ تلمس فيها يدُ الله قلبَ الأم !

* * *

وهَلَّ الطفلان (١) لما أبصرا أُمَّهما ، ونفضا أيديَهما نفضَ الأجنحة ؛ ثم أكبَّت هى عليهما بجسمها ومدامعها وقُبلاتها ، والتَحما بها التحامَ الجزء بكلِّه واشتبكت الأذرعُ فى الأذرع حتى لا تفرق بين ثلاثتهم فى معانى الحبِّ إلا بالكِبَرِ والصِّغر ؛ ورجعتْ معهما طفلةً كأن تاريخها ابتدأ جديداً فى ساعة من الساعات الفاصلة التى يتحول عندها التاريخ .

وإذا كانت القلوب بين إصْبَعَين من أصابع الرحمن يُقلِّبها ، فلقد كانت هذه القلوب الثلاثة فى تلك اللحظة تنطق وجوهُها بأنها فى يد الله يهزها هزًّا ! ... ولكم وددتُ لو أستطيع أن أخلط بها قلبى المسكين فى لَمْسَةٍ واحدة ليشعر ولو لحظة فى هذه الحياة أنه سما بروحه فوق العالم كله !

لو أصابك الهمّ لحبيبك إذ تراه مهموماً متألماً . لذقتَ أحلى أنواع الآلام السعيدة ؛ فكيف بك لو تبدّل همُّه بغتة فأقبلتْ عليك قبلاتُه وضَحِكاته تُزحزح عن قلبك ناموسَ الكآبة ؟

الحب ! ما الحب إلا لَهْفَةٌ تهدر هديرها فى الدم ، وما خُلِقتْ

(١) صاحا صيحة الفرح

لهفة الحب أول ما خُلقتْ إلا فى قلب الأم على طفلها تَرْأَمُه وتحنو عليه، ولن يحفظها للعالم إلا هذا القلبُ نفسه. ولقد يكون عمرُ الطفل يومين، ولكن لهفة أمه عليه وحفظَها إياه حِفْظَ عينيها، تجعل له من الحب عمراً متطاولا يقاومُ به الأقدار العادية عليه فى مسارحها؛ ولولا ذلك لَحَطَمَتْه هذه الأقدار كما تحطم كلَّ طفل أهمله ذَوُو عِنَايته[1]: فلهفة الأم على طفلها كأنها قوة سِنينَ عدداً فى جسم هذا الطفل؛ ومن ثمَّ لم يكن الحب الصحيح فى أسمى مظاهره إلا حبَّ المرأة لبنى بطنها[2]، وإنما يسمى غرامُ العاشقين حبًّا لأن فى العاشق دائماً مع حبيبته أكبرَ معانى الطفولة، وفى العاشقة دائما مع حبيبها أصغر معانى الأمومة،

وما كان هذا الغرام ليُسمَّى حبًّا لولا ذلك، ولولا أن فى اللغات لصوصا من الألفاظ تسرق معانى غيرها ...

حبُّ الأم فى التسمية كالشجرة: تُغرَس من عود ضعيف ثم لا تزال بها الفصولُ وآثارُها، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها، حتى تكتملَ شجرةً بعد أن تُفنىَ عِدادَ أوراقها ليالىَ وأياماً.

وحب العاشقين كالثمرة: ما أسرعَ ماتنبت وما أسرع

---

(١) أهله والقائمون بأمره

(٢) أولادها

ماتنضج وما أسرع ما تُقطف ، ولكنها تُنسى الشفاهَ التى تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة

لا لذة فى الشجرة ، ولكنها مع ذلك هى الباقية ، وهى المُنتجة ؛ ولا بقاء للثمرة ، ولكنها على ذلك هى الحلوةُ ، وهى اللذيذة ، وهى المنفردة باسمها .

وهكذا الرجل ، أغواه الشيطان فى السماء بثمرةٍ فنسى الله حينا ، ويُغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحيانا !

✡ ✡ ✡

وذهبت المرأةُ بالصغيرين بعد أن شهدتُ منها ومنهما مواقِعَ رحمة الله فى القُوى المسكينة التى لم تجئها المسكنةُ إلا من كونها أطهرَ القوَى وألطفَها ؛ وانفجر قلبى آلاما وسروراً ورحمة فى ساعة واحدة ، ثم كاد ينفجر آخرَ الأمر من الضحك ... حين أراد الطفلان أخْذَ الأديبِ السكيرِ معهما لأنه مضحك ...

الفصل السابع

الشيخ على

وكأنما أنظر الآن فى قلب رجل لا فى وجهه ، إذ تهلَّلَ على السحابِ وجهُ « الشيخ على » شيخِ المساكين [1]

أراه كما كنتُ أعرفه : ضاحكاً غير الضَّحِك الذى يلبَس وجوهَ الناس ، فلا يضحك لشىء إنسانى ، بل ما هو إلا أن تراه قد تهلَّل فرفع وجهه إلى السماء وأرسل من فمه مثلَ نُور التسبيح فى إشراقٍ جميل ، حتى لقد كان يُخيَّل إلىَّ حين أبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ، ولكن قلبه يرتعش بعضَلات وجهه !

لو أراد الله بالناس خيراً لوضع فى أبصارهم أشعة تَنبَثُّ فى أطواءِ القلوب فتعرف ألوانَ العواطف وتُميزها لوناً من لون ، ولكنه جعل الوجه غطاء على معانى القلب ، ثم سلَّط الفكرَ على معانى الوجه ومعَارِفِه يصوِّر فيها ما شاء مما له أصلٌ فى

---

(١) وضعنا كتاب (المساكين) على لسان هذا الرجل ليتعزى به أهل البؤس وأحلاف الهموم ، وقد أفردنا لوصفه بابا فى ذلك الكتاب ، وحسبه أكثر القراء رجلا مخترعا كرجال الروايات ، ولكنه كان رجلا أشبه فى حياته برواية ، وقد توفى فى سنة ١٩١٩ ، وظهرت بموته كرامات عجيبة شهدها الناس بأعينهم ، ولم يتعه أحد ولا كان أحد يحفل به ، ومع ذلك كانت له جنازة لم يعرف مثلها فى بلدته وأحوازها ، كأنما خرجت الحياة نفسها تشيع أصغر حي لتجعله أكبر ميت !

الحس وما لا أصلَ له ، حتى ليَختبئُ الإنسان عن الإنسان وهو مكشوف لعينيه ... وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخيرَ والشر صريحين ، فقد أوجد الإنسانُ ثالثاً لهما ، وهو تلبيسُ أحدهما بالآخر ؛ وأراد الخالق ذلك ويَسَّرَه للإنسان ، فجعل فيه آلة واحدة للصدق ، وهى القلب ؛ وآلتين للكذب : وجهَهُ ولسانه ...!

✡✡✡

كان « الشيخ على » يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها ، على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته [١] وكانت الدنيا كأنما نسيَتْ أنه فيها ، فتركت له روحه صافية منطلقة تَتَطَعَّمُ الحياة غير مُستقِرَّة فى شىء ، كما يتطعَّم النسيم رائحتَه من ورق الزهر فهو يَتسحَّب عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر

وما زالت روحُ هذا الرجل منى منذ عرفتُه كأنها نَضَّاحَة عِطر [٢] تَمُجُّ رَشَاشَها على حياتى رَوْحاً وعَبيراً وندًى ؛ وكأن الرجل طفل عزيز من أطفال قلبى يملأ ماحوله ابتساماً وطفولةً

---

(١) أكثر من ترى من الناس لهم حظوظ الانسان ولا إنسانية فيهم ؛ والشيخ على لم يكن له من حظ الانسان إلا الجرعة واللقمة وغمضة العين !

(٢) رشاشة العطر ، وهي ترجمة لكلمة (Vaporisateur) ويسميها العامة « بخيخة العطر »

ورنّة ، ولو أن أحداً خُلق من عينى الطفل الضاحكتين لكان هو (الشيخ على) رحمه الله : على أنه كان رجلا من سُوسِهِ القوةُ ، معصوباً مُتكدِّساً [١] ، يملأ جِلدَه كأنه جِذْلٌ من أجذال الشجر [٢]

✡ ✡ ✡

... وانقبضت نفسى انقباضةً شديدة ، إذ تغير الرجل فى خيالى فنظر إلىّ نظرة ينقدح منها شررُ الغيظ ، فلو أبصرتْ عيناك طائراً ضعيفاً أراغَه نَسرٌ فاستطرَدَه فى نواحى الجو هكذا وهكذا [٣] ، ثم أهوى له بمخالبه ، ثم سَدَّد إليه نظرة غَرَزتْ هذه المخالبَ وانفجرت بآلام لحمه ودمه — فاعلم أن تلك هى كنظرة الشيخ إلىّ ، ولقد تبعثرَتْ لها شياطينُ نفسى فانطلقتْ يحاول كلُّ شيطان منها مهْرباً ، وكانت تُوسوِس فى صدرى أن أستمدَّ من روح الشيخ قوة فى الحب ، هـذا الحب الذى مهما اعتبرتَه لم تجده إلا كإحياء الخيالات بقتل حقائقها .

... ثم مالبث أن استضحك وأطاق لى نفسى ، وجاشت

---

(١) المتكدس : الممتلئ عضلاً ، والمعصوب : الشديد على الجسم بعضه على بعض ، ومن سوسه : أى من أصله وطبيعته ، أو كما يقول العامة (من عوده)

(٢) ماعظم من أصولها

(٣) أى هنا وهناك

عيناه بنظراتهما الحكيمة ، فقلت : ويحك يانفس ! إن عين الشيخ ترى من الجمال غير مانرى ، ثم تعلم علمها مما نظرت فيه ، ثم تقدره على حساب ماتعلم منه ؛ فما يدريك لعلّ هذا الرجل الروحانى لايرى إلا ماوراء تلك البَشَرَة الجميلة التى تكسو وجوهَ النساء الجميلات ، كما نُبصر نحن من وجوه الموتى وقد تأكلَ جلدُها وتناثر لحمها وبرزت عَظْما كسائر العظم من كل حيوان ؛ فلا موضعُ قُبلة ، ولا سحر نظرة ، ولا إشراقُ بَسْمة ، وما هو إلا تركيب من العظم صُنع هذه الصنعةَ تيسيراً لما خُلقَ له ! ... ولعله يانفسُ لو حَشَر اللهُ لعينيك أجملَ الجميلات فى صَعيدٍ واحد وحشر معهن إناثَ البهائم صِنْفاً صنفا ، ثم نزع عن تلك الوجوه كلّها ذلك الطِّرازَ من الجلد وماوراءه من اللحم مُزْعة بعد مزعة [1] ، حتى لايبقى إلا الوضعُ فى بناء العظام وهندستها ؛ فما يدريك لعلّ أجمل الجمال عندنا هنا لايكون حينئذ إلا أقبَح القبح هناك ؟

أفمن جلدة على وجه امرأة يجيء الشعر والجنون معاً ، ويجتمعان فى هذا الخيال الذى يسمى الحب ، ويستنزلان معانىَ التقديس من أعلى السموات إلى عين تَلْحظ لحظة وشَفَة تبسم بسمة ؟

(١) هى القطعة من اللحم

إنه القلم الإلهىّ المبدع الحكيم هو الذى صوَّر ولوَّن وافتَنّ ماشاء ؛ فإن رزقت امرأةٌ جلدة جميلة مُشرقة كأنما تجرى فيها الشمسُ ، وأُلبسَت أخرى جلدة قبيحة سَفْعاء [1] تجول فيها رهبةُ الظلمة ؛ فكلتاهما صورةٌ من صنع الله ، وكلتاهما تُظهر لوناً من ألوان الحكمة ، وكلتاهما جاءت لمعنى ، وكلتاهما بَعدُ غِشاءٌ زائل على وضع ثابت لايختلف فى هـذه ولا فى تلك : وضْعِ الحقيقةِ الجسيمة التى تحمل الحياةَ بأدواتها الكثيرة . والحياة لاتعرف البشرة إلا غطاء على ماوراءها ، أسودَ أو أبيض ، وكان من لون المرمر أو من هيئة الطين !

ولو أن كل وجه فى نساء الدنيا خُلق دميما نافراً على أبشع ماتتصوره من القبح ، لكان كلُّ نساء الدنيا جميلات ؛ إذ يألف الطبعُ الإنسانىُّ تلك الصورةَ الواحدة ، ويتقرَّر بها الذوقُ فى الجمال ، وتستمرُّ بها العادة ، فلا يستبين وجهٌ من وجه آخر فى صفة ، ولا يخالف مذهبٌ مذهباً فى حالة

ولكن هذا الإنسان كُتب عليه الشقاء ، خُلق وخُلق معه ما يُطغيه وما يَستفِزُّه وما يُخرجه عن طَوْقه ؛ كما خُلق له ما يُزهِّده وما يطمئن به وما يحصره فى إنسانيته . فالجميلات والقبيحات كلهن سواءٌ فى أنهن نساءُ هـذه الإنسانية ، لاتقصّر فى ذلك واحدة

(١) السفع : سواد مشرب بحمرة ، والمراد به هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

عن واحدة ، وإنما يتفاوتن فى أسباب الشقاء الإنسانى الذى يبتلى الرجلَ بالمرأة ويمتحن المرأةَ بالرجل .

ولو سما عقل الرجل إلى الغاية العُليا من كماله ، لرأى المرأةَ الجميلة الفاتنةَ فى نصف جمال المرأة القبيحة ، ولبانت الواحدة عنده من الأخرى بأن الدميمة مهيَّأةٌ فى نفسها لمعالى الأخلاق ، والجميلة مهيَّأةٌ لسَفْسافها [1] ، ولَرَأَى مع هذه من بعض طباعها ونَزَغاتها شراً مما تقدم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من أكثر طباعها وصِفاتها خيراً مما قَصَّر بها من حسن صورتها

بَيْدَ أن من شِقوة الطبع الإنسانى أنه سخط القبح فأحاله فساداً ، وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر ؛ إذ كان فى نَفرته وحبه لا يعتبر المنافع والحقائق ، ولكن الأهواءَ والشهوات . والمنفعة والحقيقة كلتاهما لا تكون إلا فى قيودها ، أما الأهواء والشهوات فهى دائماً لا تقع إلا مُتَخَطِّيةً حدود العقل ، إما إلى النقص وإما إلى الزيادة ، ولا تُغْرَى بشىء إلا أوقعت به السوء ؛ إذ لا يستوى فى القصد ما خرج عن الحقيقة وما هو مقيَّد بالحقيقة .

* * *

(١) السفساف : الدنى ؛ وأصله ما يتطاير من الغبار إذا أثير ؛ ومن الدقيق إذا نخل لأنه أهونهما ولا فائدة منه

كان هذا وحيَ (الشيخ على) فى نفسى ، غير أنى رددته عليه وأزلنى شيطانُ الحب مرة أخرى ، فقلت : أفترى الشوهاءَ على مابها مما ركع للدهر وسجد [١] ، ثم تلك المرأةَ التى سُمج تركيبها فتحامتْها العيون ، ثم الأخرى التى قمِئت فى بيتها تختبئُ فيه من القبح [٢] فصارت سراً فى صدر الحيطان ؛ ثم تلك التى تلوح فى النساء كالسطر المضرب عليه أفسده الخطأ ، ثم المهزولةَ التى أدبر جسمُها [٣] وتقبّضت أعضاؤها وأصبحت جلدة تمشى وتتكلم ... أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة فى ألوان الثياب كأنما تُلبس بدنها الجميلَ بدناً معنوياً يدل على معانيه ، أو الأخرى التى تظهر فى جمالها الفتّان عاطلة من كل حِلية ومع ذلك ترفّ على حسنها روح الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من البريق والشعاع ، أو المطويةِ الممشوقة المُسْتَرْسِلَة كأنها فى قوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرتُه ، أو الحسناءِ اللّعُوب المزّاحة كأنما اجتمعت طباعها من نور القمر أطلَّ فى ليلة من

---

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه ، ويقال : ركع للدهر وسجد ، إذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراء مابه من الذل

(٢) هى القمعة (بوزن ملكة) : وجمعها قمات (كلكات) : من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة

(٣) كاد يفنيها الهزال ، وتسمى الممصوصة

ليالى الربيع يداعب أوراق الورد النائمة ، أو ... أو تلك ياشيخ على ... ؟

(قال الشيخ على) فياويلك ! إنى والله بك من رجل لخبير [١] أفمن أجل واحدة ... ؟ أما إنه لعل الذى جعلها حقاً عندك هو الذى يجعلها باطلا عند سواك ، ولعله ماحسّنها فى عينك إلا أن طبعا من الجد فيك استملح طبعا من الهزل فيها كما ترى مغنًى مكدوداً فى إنسان يستروح إلى نقيضه فى إنسان آخر . ولعل من أمتع اللذات وأبهجها لقلب المهموم أن يتصور فى همه من يعرفه طروبا فرحا ، وإن كان كلا الرجلين لا يسكن لعشرة الآخر لو تعاشرا واختلطا . وهذه القلوب لا تُؤتى من مأتى هو أدقُّ وأخفى من توهم ما فيه اللذة ؛ فإن النفس ترجع عند ذلك بكل حقائقها إلى نوع واحد من الوهم ، ينصرف بها إلى تمثل هذه اللذة التى استشرفت لها وطمعت فيها ، فإذا طعمها فى الدم يهيج له سُعارَ [٢] الجوع العصبى ... وما هى السرقة مثلا إلا أن يضع اللص عينه على المال أو المتاع ، ويتذوقَ طعمَ اليُسر والفائدة ، فتُجَنَّ أعصابُه جنون الحاجة ، فلا يرعوى إلى شىء

---

(١) أى خبير بك وبما تبطن وتخفى

(٢) مايأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون ، وحالة الأعصاب متى احتاجت لأمر لاتكون إلا هكذا ، وبخاصة إن كان هذا الأمر من الحب

من الرأى يزجره أو يمنعه أو يكفُّه ، ويكون فى الحقيقة سارقا من قبل أن يسرق ؛ وكذلك يكون الفاسق متى نظر إلى المرأة واشتهاها ونبَّه معانيَها فى نفسه . وقل مثل هذا فى كل من طار قلبه أو طار صوابه .

ألْهُ عن وهمك يابنى ، وضع الأمر على قاعدته ، وسدد نظرك إلى حقيقته ، ودعنى من حبل الباطل الذى تجرفيه شيطان هواك أو يجرك هو فيه . وما تتكلم عن اثنين من الخليقة : أنت وهى ، ولو أن الأمر قد انحصر فيكما وفنيتَ بالحب فيها لكانت هى الكونَ كله ، ولو فنيتْ هى فيك لكنت أنت ذلك الكون وهذا (حرسك الله) موضع النقص فى النفوس العاشقة : إذ تنقطع إحدى نفسين من العالَم إلى نفسها الأخرى ؛ وهو نقص أشبه بجنون المجانين ، بل هو متمم له ؛ فإنما ذهاب العقل فى المجنون المختبَل هو نصف الجنون الإنسانى ، أما النصف الآخر فهو تجرد العقل فى العاشق المتدلّه

نِصْف الجنون فى العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحَب ، ونصفه فى المعتوه الذى يتجرد من الزمن إلا الحاضر !

إنه ليس للمجنون عندَ نفسه ماض ولامستقبل ؛ إذ لا يأمل هذا ولا يذكر ذاك ؛ وكل سعادة نفسه فى هذا النسيان الذى طمَس عليها وتركها كأنما تعيش فى غير عمرها ، بل فى كل أعمار

الإنسانيـة ، بل بغـير عمر ؛ وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخص آخر ممن مضى وممن يأتى ، مادام الحب قائماً ؛ فالحبيب هو الحبيب ، وكل الناس بعده أدوات ؛ وشخص واحد هو الألف واللام والحاء والباء ، والناس جميعاً نقطة صغيرة ملقاة تحت الباء فقط ... !

(قال الشيخ على) : ثم يبْرأ المجنونُ ويثوب إليه عقـلُه فيعرف أنه كان مجنوناً ؛ ويُبغض المحبُّ أو يسلو ويبرأ من وهمه فى تلك المرأة فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً ؛ أفلا يكفى هذا (ويحك) فى الدَّلالة على أن الحب والجنون من أم واحدة وإن اختلف أبَوَاهما ؟ ... وأنَّ رأىَ العاشق فى كل النساء كرأى المجنون فى كل الناس : لا يجوز أن نأخذ بواحد منهما إلا إذا أخذنا بالآخر وأقررناه فى باب الصواب والعقـل ؛ إذ كلاهما حاصلٌ من حالة متى تغيرتْ فانقلبت اعترف صاحبها عليها بالجنون ، وإن كانت إحدى الحالتين فى طبيعتها ووصفها غير الأخرى ؟ وَيْلَمِّه وصفاً من العاشق لوكان مع صاحبه رأى ! وويلمِّه (١) رأياً من المجنون لوكان مع صاحبه عقل !

---

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الأمر ، تشعر الذم ولا يريدونه ، وأصلها : ويل أمه ، ولكنهم يسقطون الهمزة ، ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة ، وترسم كلمتين إذا أمن الخطأ فيها

✡✡✡

(قال الشيخ على) : سئل الحلاج [١] وهو مصلوب يعانى غصّة الموت . ما التصوف ؟ فقال لسائلة : أهْوَنُه ماترى ... ، فهذا رجل يموت فى سبيل حقيقة تقتلة بغموضها السماوى العجيب ؛ وعلى أنها قد دَقَّت المسامير فى أطرافه وجَمعت لموته آلامَ الحياة كلها ، وأنبتت فى كبده من وخزات الجوع شجرةً من الشوك ، وأطلقت فى عروقه من لذَعات العطش لهيباً من النار ، وتركته على صليبه عدوداً تتساقط نفسُه كما يُنْشَر الثوب الذى بلِيَ وانسحق فهو يتمزّق من كل نواحيه — على هذا البلاء كله ، لم تتغير الحقيقةُ فى رأى الرجل ، ولا فسد موضعُها فى نفسه ؛ ولا رأى مايكرهه الناسُ

---

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفى الشهير ، اختلف العلماء فيه اختلافا كبيرا ، ورمي بالكفر ؛ وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة ، وهو فيما قرأنا عنه من أكبر رجال الحقيقة ، ومازال هذا التصوف كالحقيقة نفسها : هي موضع المعرفة وموضع الجهل معا . ومن أبدع ماقرأناه فى ذلك أن أصحاب الشيخ عثمان القرشى ، من أكبر علماء مصر فى علوم الحقيقة والشريعة ، قالوا له يوما : مالك لا تحدثنا بشيء من الحقائق ؟ فسألهم : كم أصحابى اليوم ؟ قالوا : ستمائة ، فقال : انتخبوا منهم مائة ، فانتخبوهم ، فقال : اختاروا من هؤلاء عشرين ، فاختاروهم ، فقال استخلصوا من العشرين أربعة ، فكان الأربعة أئمة الجماعة : ابن القسطلانى ، وأبا الطاهر ، وابن الصابونى ، وأبا عبد الله القرطبى . قالوا : فلما انتهى الأمر على ذلك ، قال الشيخ رحمه الله : لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رءوس الأشهاد لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الأربعة !

فتأمل غور هذا البحر ، فما أبعده غورا ، وتوفى القرشى سنة ٥٦٤ هـ

من الألم مكروها فى ذاته فيميل عنه ولا مايحبونه من اللذة محبوباً فيميل إليه ، ولا تَسَبَّب قلبه حركةً واحدة فى السخط على الحكمة الإلهية فانْتَقَصها برأى أو اغْتَمزَ فيها بكلمة ؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحدِّ الإنسانى المنتهى فيه ؛ إلى مايبدأ عنده الحدُّ الإلهى الذى لاينتهى ، ورجع آخره إلى أوله ، فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نزَلَ به : اللهمَّ إنك بدأتنى طفلا غِرا جعله فقدانُ العقل لايملك مع أحد إلا صياحه ؛ فخذنى إليك طفلا عاقلا جعله العقلُ لايملك مع أحد ولا صياحَه !

واذكر الطفلَ يابنىَّ ، فرُبَّ مُعضلةٍ من أمور هذه الدنيا يحار الناس فى آخرها وهى محلولة من أولها . وما هؤلاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا ؛ غير أننا لانأخذ عنهم ؛ فلا نَصلُح ؛ ويأخذون عنا ؛ فيَفْسُدون ! ... أفرأيت ولَدَ الشوهاءِ تعرف عيناه فى كلّ ماطلعت عليه الشمس أجملَ من وجه أمه ، أو يرى طائلا فى وجه سواها ، أو يحنُّ إلى غير طلعتها ، أو يسكنُ إلى صدرٍ غير صدرها ، حتى كأن الله لم يخلق وجهَ حبيب لقُبُلات مُحبِّه إلا وجهَها هى لقبلاته ؟ (٥)

إنه فى ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحيةُ صفاته هو ؛ فإن القلب إذا لم يكن بهيميًّا منعكساً أشرق صفاؤه فيما حوله

(٥) انظر قصة (قبح جميل) ج ١ ص ١٥٩ وحى القلم للمؤلف

فلا يرى إلا خيراً ، وليست المَرئى صِفةُ الرائى فلا ينظر إلا جمالا ، واتصل الشعورُ الطيِّبُ الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذاتِ النفس ، كما يصل الشعاع الذى يُلقَى على حائط من المصباح بين هذا الحائط وبين المصباح ، فيُغشِّيه النورَ وإن كان الحائط نفسُه من الطين ... فإذا كان القلب بهيميًّا زائغاً عن الإنسانية إلى حيوانيته ؛ استفاضت ظلمتُه وشهواتُه على ماحوله ، فلن يشهد من صفات الجمال شيئاً ، بل يرى فى كل شىء من صفات نفسه هو ؛ حتى ليكون الوجود كله فى عين بعض الناس كما يكون الطعام كله فى فم المريض .. ومثلُ هذا يعشق أجملَ النساء فلا يرى فيها جمالا ألبتَّة ، وإن هو خدع نفسَه فى ذلك واختدع الناسَ ؛ وإنما يرى شهوات ؛ شهوات جميلة ليس غير !

أما القلب البهيمىّ غيرُ المنعكِس — وهو ذاك الذى تحمله البهائمُ ، فلا يحتفل فيه عقلٌ ولا يَحتشد فيه خَيال ، وما هو إلا أن ينصبَّ الحيوانُ به على تحصِّ المنفعة ؛ لأنه عاملٌ فى الطبيعة ، يُعَدُّ من عُمّالها لامن شعرائها — فليس عنده جَمال يقع فى ظاهر الروح ، وآخرُ يقع فى باطنها ، وثالثٌ متوهَّم لايقع ولا يمتنع أن يقع [1] ؛ وليس يعرف من معنى القبح إلا

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون ، وهى : إن الجمال إذا وقع فى ظاهر الروح كان صباحة ، وإذا وقع فى باطنها كان فصاحة . فزدنا عليها ماهو فوقهما مما لايعرف إلا بالتخيل ولا حقيقة له فى الواقع

أن تكون الأنثى قد طاش بها المرض فما تستقل إعياءً وضعفا. وبذلك سلمت إناثُ البهائم من شرّ كثير يملأ لغةَ الحياة النسائية بمعانيه، وتجمعه كلمتان: الجمال والقبح!

والناحية الأخرى التى ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشوهاء، ناحيةُ الصفات الإلهية؛ فإن الحب الصحيح الذى يمكن أن يسمى حبا، لايكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق، وغيرها مما يُظهر البشريةَ على أتمها وأحسنها فى الشخص المحبوب كما يظن الناس خطأ؛ بل هو فى عكس ذلك، أى فيما يُخفى البشريةَ بمحاسنها وعيوبها جميعا، ويُظهر فى أمكنتها خصائصَ الروح المحبوبة وحدَها؛ فمن ثَمّ يبدو لك شخصُ المحبوب على أىّ أشكاله وهيآته كأنه تمثالٌ سماوىٌّ وُضع لروحك خاصة، فهو مجبولٌ من مادة واحدة، هى مادةُ الفتنة، ولو كان فى أعين الناس كافة تمثالَ الأرض السُّفلى يُصور كلّ ماتشتّت فيها من القبح!

فإذا لم تظهر لك خصائصُ روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلّ شىء فيها ذا معنى منه، وكل معنًى منه ذا معنًى فيك، فما أنت من حبها فى شىء ولو ذَهَبَتْ من جمالها بعقول الناس، ولا هى عندك من الجمال فى شىء ولو كانت فى النساء كليلة البدر فى الليالى؛ ومن أجل ذلك لايخلو الحب من بعض معانى الوحى، ولا تخلو الحبيبةُ من بعض المادة

الملائكية [١] فى النفس التى تعشقها ، وهل مَلَكُ الوحى إلا قوة المزج السماوىّ فى نفوس الأنبياء ، وهل روحُ الحبيبة إلا على قدْر من مثل هذه القوة فى نفس محبها ؟ ... ولعل هذا يفسر لك سراً من أسرار الاحتراق فى بعض الأرواح العاشقة التى تيّمها الحب ؛ فإن تلك القوة المزجيَّة متى أفرطت على نفسٍ رقيقة حسَّاسة ، أذابتها واشتعلت فيها فأكلها أكلَ النار للهشيم ، وتركتها تحترق أسرعَ ماتحترق لتنطفئ أسرعَ ماتنطفئ !

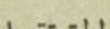

(قال الشيخ على) : تلك هى الحقيقة يابنىّ ، فلن يأتى لكائن من كان أن يقسم النساء إلى جميلات وقبيحات ، إلا إذا طوى فى ذلك معنى القسمة إلى شهوات جميلة وشهوات قبيحة ؛ ومتى انتهينا إلى هذا فقد خرجنا إلى المخاطبة بلغة لاهى من لغة البهائم ولا هى من لغة الإنسانية .

أفرأيت قطُّ ألفاظ الجمال والقبح تَشيع فى أمة من الأمم

---

(١) نسبنا إلى الجمع للخفة ، وفرقا بين هذه وبين النسبة إلى الملك (بكسر اللام) ، فانها ملكية (بفتح اللام)

(قلت) : وقد أقر المجمع الملكى للغة العربية هذا الاختيار ، فصار النسب إلى الجمع فى مثل هذا قاعدة من بعد

وتعلو بالأعين عن النساء وتنزل وتمتدّ [١] بها وتنقبض ، إلا أن تكون أمةً ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها ، أو ضعيفةَ الدين قد اختلت أرواحها ؟

انكشف القمر ذاتَ ليلة لرجل اسمه « من عباد الله المقربين [٢] » ، فإذا البدر أسود كالحبر ، وإذا مكتوبٌ فى وسطه بالنور « أنا وحدى » ؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كلُّ ضياء الشمس عليه أن يَسْود فى عين الرجل الكامل الذى ينظر لروحه ، فما الذى يمنع مَن ينظر لروحه وخصائصها أن تصير المرأةُ القبيحةُ فى عينه كالقمر الأزهر ؟

* * *

فى البدر ظهرت كلمةُ الألوهية « أنا وحدى »

وفى وجه الحسناء تقرأ كلمةَ الألوهية « أنا وحدى »

فهل يمكن أن تقعَ الدميمةُ من الحسناء أقبح مايقعُ ظلامُ القمر من نوره ، فلا تكون فى وجهها هى أيضاً كلمة

---

(١) يقال : علت العين عن كذا : أى نبت عنه نفوراً فلم تلتصق به ، فاستعملنا منها (نزلت) كما ترى

(٢) هذا تهكم من الشيخ على ، يريد به طائفة فتياتنا وفتياتنا ممن يرون الدين شيئاً قديماً فى لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم . فليهنأهم البلاء الجديد الذى حل من أنفسهم محل الدين ، فجعل الرجل بلاء على المرأة إن تزوج بها أو أهملها ، والمرأة بلاء على الرجل إن كانت له أو لنفسها ، والوطن بينهما يقول ماتقول جهنم لأهلها : « لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبورا كثيرا » !

الألوهية « أنا وحدى » ؟

✡ ✡ ✡

لم يبق فى البدر مع الحكمة العُليا شىء يُسمَّى الجمال ، ولا المرأة الحسناءُ يكون فيها شىء أجمل من القمر ؛ فهى مثله ليس فيها مع تلك الحكمة شىء اسمُه الجمال ؛ أفيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها فى وجه القبيحة شىءٌ اسمه القبح ؟

✡ ✡ ✡

القمرُ طالعٌ مُشرقٌ كما كان
والجميلة الحسناءُ لا تزال فاتنة
والدَّميمة ظاهرة كما هى
لم ينقص الكونَ من ثلاثتها شىء
ولكن أين عينُ الرجل الكامل ؟

الفصل الثامن

الشيخ أحمد [1]

والساعة أرى سحابي أصفى ماتمثّل لى وأرقه، كالسماء فى صبيحة سارية [2] إذا غسلها الليل وأصبحت لابسة حريرها من شفق الصبح الأحمر؛ وأرانى أنظر إليه وأهتف له وأستشرق فى ضوئه، كالطائر: لايسعه جلده مرحاً وتقلباً وحنينا متى أصبح من الليلة الممطرة إصباح الشمس، بعد أن أباته المطر بيتة كأنها فى عش السحاب.

وأشرق عليه صديق هذا؛ ولا ومصرّف القلوب [3]، إن ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذنى من الحنين إليه مالا يكون مثله لصديق ميت، بل لحبيب هاجر يُشعرك موتَ الأيام كيف يكون

كانت صحبته اياى من أطراف الطفولة الى آخر الشباب إلى تخوم الكهولة، وهى أيام شبع العمر، لا يطعم فيها من شىء إلا طعمَ من لذة، وما بعدها من تقاصر الحياة واختلالها إلا

---

(١) هو الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد الرافعي ابن عم الكاتب وصديق نشأته ورفيق شبابه، والكاتب خال أولاده، ذهب (رحمه الله) يقضى فريضة الحج فأقضى إلى ربه من هناك ودفن بمكة

(٢) صبح ليلة فيها مطر، والسارية السحابة تمطر ليلا

(٣) هذا قسم، وكان أكثر مايقسم به النبي صلى الله عليه وسلم

كأيام سوء الهضم ... !

إذا كان فى امرئ من الناس باق بعد شبابه ، فما أشبه هذا الباقى فى جانب ماقبله بنَواةِ الثمرة الحلوة من لُبابها : تنتهى فيما تأكل إلى النواة ، ولكن بعد أن يكون أطيبُ ما فى الثمرة قد انتهى ؛ وتُفضى بما ينعصر فى الريق - لاوة ويسيل فى الحلق لذة إلى بقية من الخشب رَطْبِهِ أو يابسه ؛ لو كانت النواة من الذهب مارجَعَتْ لك من ثمرتها رَجْعة (١) .

ياأيام الشباب ! أنتِ وحدك نورُ الحياة ؛ لأنك منذُ الفجر ، وأنت وحدك نهارُ العمر ؛ لأنك إلى أن تَصفَرَّ الشمس ، وليس وراءك إلا كآبةُ الليل تتقدم ليلَها باسمةً فى شفق المغرب !

ياأيام الصبى ! أنت وحدك الحب ؛ لأن فيك ما فى عيون الحبيبات ، أشخاصا روحية ظاهرةً بمعانيها الفتانة ، فهى تلقى أشعةَ الجمال على كل ماتنظر إليه

ياأيام الرجولة الأولى ! إن فى زمنك وحده تحلُّ السعادة فى العقل ، إذ يكون العقلُ فى عهدك مايكون الطفل فى عهده لغته تجرى من معانى الدموع والابتسام والضحك ، ولا يَستدير به إلا الأفواهُ الحبيبةُ التى تقبِّله أكثر مما تزجره : وحتى لو ضُرِب لكان الضرب سبباً من أسباب تقبيله فيما بعد ... !

---

(١) الرجعة : ماتسترده مما فات

يا أيام الشباب ! أنت وحدك العمر ؛ ومن بَعْدِ الشبابِ كل شيء يكون فيه من الماضى فِعلٌ مستتر تقديره كان !

* * *

يرحمك الله ياصديقى الكريم ؛ تركتَنا مُصعِدا إلى الله فى سُلَّم كانت الأولى من درجاتها عَتَبةَ هذا البيت فى مصر ، وكانت الأخرى تلك العتبةَ الطاهرةَ من بيت الله فى مكة

وذهبتَ عنا وما علمنا أنك طائر يُغَطى تحت ريشه سرّ الجاذبية العليا

واسودعتَنا اللهَ واستودعناك فاشتبكتْ دموعٌ فى دموع ، وما حسبنا أن أرواحنا تقيم من ذلك مَناحتها قبل الفراق الأبدى .

وخاطبناك عند البَيْن وخاطبتَنا ، وما عرفنا أن السماء كانت وقتئذ تكلّم الأرضَ من شفتيك بألفاظ لها مابعدَها .

ونظرتَ إلينا طويلاً تلك النظرةَ التى لاتكون إلا ممن يَعرف حتى لاينكِر شيئاً ، أو ممن ينكِر حتى لايعرف شيئا ، فإذا أنت تنظر من أعماق الأزَل فى تراب هذا العالم ونحن لاندرى

وسألنا الله أن يردَّك علينا أيها العزيز ، فأثبتَّ لنا أنك من أعز ما فى الحياة حتى سقط دونك الأمل فلا يتمثَّلك إلا الفكر وحده .

* * *

وذهبتَ إلى بيت الله متجرداً من الدنيا ليس لك منها إلا جسمك ، لِتَخِفَّ إلى محبته ورضاه ؛ فلما شاهدتَ التجلّيَ الأعلى تجردت من جسمك أيضاً واتصلتَ بنوره سبحانه وتعالى فلقد خلعتَ الدنيا مرتين ، ومات بعضك فى مصر وباقيك فى الحجاز ، وخَلصَت روحُك إلى ربها كما تخلصُ الجوهرة صافية متلألئة بعد استخراجها من مَعدنها مرةً وصَقْلها للرونق مرةً أخرى .

وأبَى الله لروحك الطيبة إلا أن تمرَّ فى بيته قبل أن تمر اليه فتَسبَح فى نور الملائكة ، وتتنسم ناحية مهبها وهى تصعد أو تنزل بالرحمة على الحَجيج [1] وتستضىء بتلك الشعلة القُدسية التى أضاءت فى الكعبة من وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم من سَرائر أصحابه الطيبين ، ولا يزالُ ضَوءُها هناك كضوء الكوكب مُلْتَمعاً فى سواد الحجر الأسود .

✡ ✡ ✡

واختار الله لك بعد إذ انغمستَ فى نوره أن تصعد إليه فلا ترجع من ذلك النور الأزلىّ إلى ظلام الدنيا ، ولا تعود من النَّبع السماوى إلى حَمْأة الأرض ، ولا تحل فى بيت من بيوت الخَلْق بعد بيته هو عز وجل !

---

(١) م الحجاج

واختار لك ماعنده على ما عندنا، فما فى أيام هذه الحياة إلا غبارٌ يثور على غبار، ولا فى الناس إلا أحجارٌ تتحطم على أحجار، ولا فى أخلاقهم إلا أقذار تصبُّ على أقذار، ولا بين الحوادث والناس إلا كما بين الرياح والقفار، ولا بين الإخوان والإخوان إلا كما تجمُع الأصفارُ من الأصفار...

واختارك الله إذ اختار لك فما تركت (يرحمك الله) إلا علانيةً مشهودة، وسَريرة محمودة، وآثاراً فى الصالحات معدودة وأفراخاً فى شجرة الحياة كصغار الطير إذا رأت أباها فارقَ عُودَه!

يرحمك الله إن أول ما يشهد لك عند الله كعبتُه: إذ كانت آخِرَ ما عرفتَ من الدنيا؛ وإن الذى يدخل السماءَ من باب الكعبة لَحقيق أن تضعَ له الملائكةُ أجنحتها سلاماً وتحية؛ فهنيئاً لك إذ فتحت باب السماء بتلك القُبلة الزكية التى وضعتها على أستار الكعبة؛ وهنيئاً لك إذ ذهبتَ لتقول: «لَبَّيك اللهم لبيك» فانطلقت روحُك الطاهرة فيها، وكانت أولَ كلماتك فى السماء!... وهنيئاً لك ثم هنيئا إذ قطعت البحرَ والبر إلى خير بِقاع الدنيا لتقول لله من هناك: ها أنا يا إلهى.

* * *

إن الحقيقة لا تَسأل كيف يحيي الحى، ولكن كيف يموت

ولا تتعرف ما قدرتُه على الاقامة ، ولكن ما قدرته على الرحيل ولا تبالى ما قوّته على الرسوح كالجبل ، ولكن ما قوته على الوثوب كالطائر ! فهناك بين حدود الدنيا وحدود الآخرة موضعٌ هاوٍ لا يتخطاه إلا ذو جناحين قد اشتد كل منهما ووفى [١] ؛ وهناك متى انتهى الإنسان وجد عقله وضميره قد امتدّا من جانبيه كالجناحين ، ورأى كل عمل من أعمالهما — فى السيئة والحسنة — إما ريشة قد نَسَلَها من جَناحه ، وإما ريشة قد أنبتها فيه .

القدرةُ على جو السماء فى جناح الطائر وفى ريش هذا الجناح وفى قوة هذا الريش ؛ والقدرة على السماء نفسها فى عمل الانسان وقيمة هذا العمل وصحةِ هذه القيمة .

* * *

لسنا نبكى عليك أيها العزيز ، وإنما نبكى على أنفسنا ؛ فإن ماأمامنا لايمكن أن يكون دنيا غير الدنيا يُفتَح لها تاريخ غير التاريخ . والحقيقة التى ضمّتها ملايينُ « المجلدات » المحفوظةِ فى القبور [٢] ، هى هى بعينها ان تتغير وان تتبدل ؛ فإذا بكينا الميتَ فما بكنا ذهابه عنا ، ولكنا نبكى لبقائنا

---

(١) طال ريشه

(٢) كناية عن الناس

بدونه ؛ كما اجتمع نفر من الغرباء فى البلد النائى ؛ فَيُخْتَرَمُ أحدهم [١] فما يَرَوْنه إلا معنى من أنسهم قد زال ، وركناً من قوتهم قد مال ، وجانبا من نظامهم قد أفسده الاختلال ! وما دام فى الأرض باك على ميت فالأرض دار الغربة لكل من عليها ، وهى لن تكون وطناً لمن سيفارقها إلا إذا عُدَّ بطنُ الأم وطنا لابنها .

مِن وطَنِ الأشهر المعدودة ينحدر الانسان إلى وطَن السنين المعدودة ؛ أما الأزل والخلود والوطن الانسانى الكبير فهناك هناك حيث لا تساوى كرة القدم بما فيها أكثر مما تساويه ذَرَّةٌ من التراب تَصْعَدُ أو تهبط

وهذا الذى نكرهه عقلا من أمر الدنيا هو الذى نرانا مضطرين إلى أن نعقله كرها شِئْنا أو أبَيْنَا .

فابكى أيتها الأعين الانسانية وتهيّئ للبكاء مادمت باقية ؛ إن تيار هذا البحر الذى تنصبُّ فيه الأحزان لايعب من دموعنا [٢] التى نبكى بها لمكابدة الموت ، ولكن من دموعنا فى مُنَازَعة البقاء .

* * *

---

(١) يهلك بجائحة من الجوائح (٢) أى لايتدفق

لَهْفى لذكراه صديقا كانت لنفسه العالية كالنجمة وهبت قوة النزول إلى الأرض ، وحبيبا لو انقسمت روحى فى جسمين لكان جسمها الثانى

كان دائما كالذى يشعر أنه لا بد ميتٌ وتاركٌ ميراثَ مودته فلا أعرف أنى رأيت منه إلا أحسنَ مافيه ، وكأنما كان يضاعف حياتى بحياته ويجعلنى معه إنسانين

وكان له دِينٌ غضٌ كعهد الدين بأيام الوحى : لاتزال تحته رِقةُ قلب المؤمن وفوقه رقة جناح الملك يخالط نورُه القلوب

وكان حييا صريح الحق ترى صدقَ نيته فى وجهه كما يريك الحق صدق فكره فى لسان ؛ ساميا فى مروءته ليس لها أرض (١) تَسْفُلُ عندها وإنما هى إلى وجه الله فلا تزال ترتفع ؛ ودودا لا يعرف البغض ، مُحبًّا لا يتسع للحقد ، ألوفا لا يسر الموجدة على أحد !

وكان رَحيب الصدر كأن الله زاد فيه سعة الأعوام التى سينتقصها من حياته ، ففى قلبه قوةُ عمرين ؛ وكان طيب النفس فكأن الله لم يمد فى عمره طويلا لأنه نفى منه الأيام الهالكة التى يكون فيها الإنسان للإنسان معنى من معانى الموت (٢)

* * *

(١) كناية عن أنه لا ينحط فيها ولا ينزل . فلا

(٢) كأيام القطيعة والعداوة والكيد ونحوها مما يجعل أعمار الناس أقصر مما هى !

آه، لو عرف الحق أحدٌ لما عرف كيف ينطق بكلمة تُسيء، ولو عرف الحب أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة تسر، ولن يكون الصديق صديقاً إلا إذا عرف لك الحق وعرف لك الحب!

لا أريد بالصديق ذلك القرين الذى يصحبك كما يصحب الشيطان: لا خير لك إلا فى معاداته ومخالفته.. ولا ذلك الرفيق الذى يتصنع لك ويماسحك متى كان فيك طعم العسل لأن فيه روح ذبابة ... ولا ذلك الحبيب الذى يكون لك فى هم الحب كأنه وطن جديد وقد نفيت إليه نفى المبعدين ... ولا ذلك الصاحب الذى يكون كجلدة الوجه: تحمر وتصفر لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها؛ فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبداً إلا على أطراف مصائبك، كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدئ المصيبة إلا من أين تبتدئ الصداقة. ولكن الصديق هو ذلك الذى إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمل فيها، وإذا غاب أحسست أن جزءاً منك ليس فيك، فسائرك يحن إليه؛ فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك وإذا تحول عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود، وإذا مات ... يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت، بل مات فيك ميتٌ، ذلك هو الصديق

وكنا ذات يوم على شاطئ النيل ، وبَزَغَ الهلالُ كأنه إصبَعُ مَلَك من الملائكة خرقت ستارَ السماء لتحدث فيه ثقباً تنظر منه إلى نجمة ستهوى ؛ فقلت له : هذا الهلالُ ما انفكّ يتلقّى نورَ الشمس منذ خُلق وهو فى نفسه مظلم أبداً ؛ ولكنه من صحبته للنّيِّر قد أنار وصار مع الشمس شمسا بيضاء ، فما أكرمَ الصداقةَ من نعمة لو أصابها المرءُ على حقها فيمن خُلق لها ! كان أهل الكيمياء القديمة يسمونها « علم زراعة الذهب » وأنا أسمى كيمياء الشمس فى هذا القمر « زراعةَ الفضّة » فماذا تسمى أنت كيمياء الصداقة فى معادن القلوب ؟

قال : أسميها « زراعةَ الخير »

قلت : فإن لم يُنْبت وأكله لؤمُ أرضه ... ؟

قال : ذلك إلى الله لا إلينا ؛ فإن فى هذا الوجود قانونا دقيقا للخيبة لا يتسامح فى شىء ، وما يعرف منه الناس إلا حُكمهُ حين يقضى فينفذ قضاؤه بدَرْك الشقاء . ألا إنه مامن الخيبة فى الحياة بُدّ ؛ فإنها ردُّ الأقدار علينا حين تقول « لا » ؛ وهذه الخيبة هى العلم الذى موضوعه أن يعلم هذا الإنسان المغرور أنه شىء فى الحياة ، لا كلُّ شىء فيها ، فإذا كذَبكَ صديقُك مما قِبَله وغمَّك بكثرة خطئه وزَلله ، فلا تزرعْه مَقْتا وبغضا بعد

أن زرعتَه خيراً وحُبا ، ولا تقطعْه ، بل انتظر فيأَته [١] ؛ فإن فِتْنة الصدر غامضةٌ ، ولقد يكون أشدُّ البغض من أشد الحب ، وليس لنا مع سُفن القلوب إذا اختلفت رياحُها وهبَّتْ عواصفها إلا أن نطوى الشراع ولكن إلى وقت

فإذا جَهَدَك البلاءُ من صاحبك وبلغ منك اليأس ، فما يسوغُ لك أن تكون معه إلا كالذى حفر الْحُفْرَة ثم طَمَّها بترابها [٢] ألقى فيها ماكان فيها من قبل ومضى كأنْ لم يكشفها !

قلت : آه ! فإذا كانت الحفرة من شرها فى عمق البئر ذاهبةً إلى الأغوار البعيدة ، أفأتضى شَطْر العمر أردم فيها بعد أن قضيتُ شطره أحتفِرُ منها ؟

قال : فمن ذا جعلها بئراً سواك ؟

قلت : ولِمَ لا أدعها بئراً خَسِيفَة [٣] يلعنها عمقها الغائرُ فيها بأنها فارغة مظلمة ، ويلعنها ترابها القائم عليها بأنها متروكة مُهْمَلة ؟

قال : سبيلُ الفضيلة غيرُ هذا : فكن مع الناس فى حال تُشبه محلّ نفسك لا محلّ أنفسهم ؛ وما أنكر أن من الناس من

---

(١) الفيأة : الرجعة ، كما يدور الظل ثم يرجع إلى مكانه

(٢) ردمها وغطاها

(٣) أى منخسفة عن الأرض

يوقعون فى نفسك الظِّنَّة [1] بِكَيْتَ وكيتَ من سوء خُلُقهم ، وكذا وكذا من أقبح أعمالهم ، حتى لتكون صداقة أحدهم كأنها نصف معركة حربية ... ولكنَّ الهزيمةَ عن صديقك وأنت صديق ، خيرٌ من النُّصرة عليه وأنت عدوّ ، ... فتحصَّنْ من كيد هؤلاء وأشباههم بالانهزام عنهم لا بمدافعتهم ؛ فذلك إن لم يُقْعِدهم عنك لم يُلحقْهم بك ، ثم إن ردَّك إليهم رادّ بعدُ كنت الأكرمَ

واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان : الصبرُ على الصديق حين يغلبه طبعُه فيسىء إليك ؛ ثم صبرُك على هـذا الصبرِ حين تغالب طبعَك لكيلا تسىء إليه !

وأنت لاتصادقُ من الملائكة ؛ فاعرف للطبيعة الإنسانية مكانَها ، فإنها مبنية على ماتكره كما هى مبنية على ماتحب ؛ فإن تجاوزتَ لها عن بعض مالا ترضاه ضاعفتْ لك ماترضاه ، فوَفَتْ زيادتُها بنقصها ، وسَلِمَ رأسُ مالك الذى تُعامل الصديقَ عليه !

* * *

قلت : فإنى لاأعنى ذلك الذى أضع « رأس » المال بينى وبينه ، ولكن شخصاً آخر وضعت « قلب » المال بينى وبينه ...

---

(١) الظنة : التهمة : تجد من أخلاقهم وأعمالهم ماتتهم صداقتهم به ...

قال : فههنا إذن ! ومن هنا صارت الحفرة بئراً . . . . ولكن أفتِنى فإنى لاأعرف هذا الذى تسميه الحب : فهل هو بين النفسين شىء غير الصداقة ؟

قلت : هو هى إلا فرقاً واحداً .

قال : إن كان واحداً فلقد هان ، فما هو ؟

قلت : الفرق بينهما أنك ترضى أن يكون الصديقُ لنفسه أكثرَ مما هو لك ، ولكنك لاترضى إلا أن يكون الحبيب لك أكثر مما هو لنفسه .

قال : فذاك رِقٌّ لاحب .

قلت : وهذا هو الذى يجعل الحفرة بئراً ، فالصداقة فى المودَّة تجذب الطبع من الطبع ليتفقا ، ولكنها فى الحب تجذب الطبعين ليكونا دائماً عند النقطة التى يتناقضان منها ! وأعظمُ مايسوءك من الصديق لايزيد على أن يردك إلى نفسك وحَسْبُ ، ولكن أيسر مايغضبك من الحبيب يسلِّط نفسك عليك بسوء التحكم والإعنات والآراء الفاسدة ، حتى يترك دمَك وكأنه تيار من الغيظ ، فإذا حبيبُ نفسك أعدى أعدائها ، وإذا هو قد أصبح العدوَّ لأنه لايزال الحبيب !

قال : أمَا إن هذا تعقيدٌ على النفس ، وهو العلة فى أن المحب المَغيظ لايسكن غيظُه ولا يهدأ فَوْرُه ؛ لأنه يحل العقدة الواحدة

بطريقة تجعلها عقدتين ؛ ولكن ، أو ليس خيراً لك إذا أنت دُفعت إلى العداوة فى الحب أن تستشعر بكرم المَلَك الذى فى نفسك ، لؤمَ الحيوان الذى فى صاحبك ، فترجعَ بنفسك أنت إلى مَلكيتها وترده هو إلى حيوانيته ؟

أما إنى أعرف لأهل الحب دواءً مايمرض بعده رجل من امرأة أساءت إليه : أيها العاشق ، أمَا صَدَمتْك بهيمةٌ من البهائم أو رَمَحَتْك [1] أو جَمحتْ بك فأوجعتْك بلا غيظ ، وأساءت إليك بلا حِقد ، وكسرتْك بلا انتقام ، ولم يتعاظمك من أمرها شىء فى الوهم ولا فى الحقيقة ! . . . ألا وَيحك ، ألْبِسْها جلدَها وحوافرَها [2] . . . ولا تتمثلْها فى مخيلتك إلا وجهاً جميلا على جسم حيوان ؛ فإنك إن تفعلْ ذلك وتأخذ نفسك به ، تطمسْ عليها فى محبتك طمساً ؛ ولا تجد لها فى قلبك إلا النفرةَ والاشمئزاز ، وتُعجز فيها الشيطانَ ، لايدرى من أين يأتيك ولا كيف يتدسَّسُ بها إلى دواهيك ، مادام لها عندك الجلْدُ والحافر . . . !

ولعل الناس لم يعتادوا فيما بينهم أن يتنابزوا ويتسابوا فى عبارات السقوط والتحقير بأسماء من أسماء البهائم : كالكلب والخنزير والحمار ، إلا على هذا الأصل الذى بينتُه لك ، تُوحى

(١) رمحت الدابة : رفست

(٢) تحسب هذه العبارة ستجرى بين المحبين مجرى الأمثال ، فإذا شكا إليك محب برد السلو ولا يطيقه ، فاختصر علم النفس كله فى قولك : « ألبسها جلدها وحوافرها »

به غريزةُ الكرامة والسقوط من حيث يدرون أو لايدرون

الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصداقة وأسفلها ؛ ألا ترى أنه مادام الحبيبان على أسباب الرضا فكلاهما أو أحدُهما يتمثَّل الآخر كما يتمثّل ملَكا من الملائكة ، بل ويسميه الملَك الحارس ، أو الملك المُوحِى ، أو الملَك المقدس .

فإذا صارا إلى الخلاف واستحكم بينهما ، لم يُغْن طلبُ المعاذير تتعزى بها الصداقة ، ولا طابُ العَثَرات تشتدُّ بها العداوة ؛ وليس للمَغيظ منهما شيءٌ دون أن يعمدَ إلى تلك الصداقة فيجعلَ عاليَها سافلَها ؛ فلم يبق حينئذ إلا أن يكون صوابُ الحب فى هذه الحالة قائما على عكس الحالة الأولى ؛ فما كان فى صورة ملكية ليثبت عليه الحب وجَب أن ينقلب فى صورة حيوانية ليزول عنه الحب

* * *

يامن أسكره الغرامُ ، إن عَرْبَد حبُّك فاحطم كأسَه وأرِقْ خمرها ولا ترها إلا سمًّا ؛ فإن أكبر البلاء على السكِّير أن يُلبس الحقائقَ المهلكة أثوابَ زينتها ، فيزعم بينه وبين نفسه أنه لا يشرب الخمرَ ولكنه ينْقَعُ غُلّة أحزانه بكأس من ماء السرور ؛ ولا يَتوحل فى السكر ولكنه يَسْتمْطِر على خموله سحابةَ النشاط ، ولا يتَجرَّعُ الجنون ولكنه يذيبُ همومَه فى جرعة من النسيان ...

ألا ما أصدقَ الخمرَ فى السكِّير وهى صامتة ، وأكذبَ السكِّيرَ على الخمر وهو يتكلم ....!

الفصل التاسع

الشيخ محمد عبده

وشفَّ سحابى عن جلال رائع يضطرب القلب له ! أذكرنى روعةَ السحابة التى كان يهبط فيها ملك الوحى ، ليست فى نفسها آيةً ولكن الآية فيها .

وظهر لى وجه الشيخ ، وما أدراك من الشيخ ؟ ثم ما أدراك من هو ؟ [1] رجل كان فى تركيب العالم الإسلامى أشبهَ بالجبهة من جسم المؤمن : هى تَجْلى نور الإيمان وأعلى مايرتفع الأعين ، ولكنها مع ذلك أول مايسجد لله من هذا الجسم كله !

خُلق نصيحاً مُبين اللهجة ، لأن لسانه أُعِدَّ لتفسير معجزة الدنيا فى هذه اللغة ، فكان لسانه — ولا غَرْوَ — معجزةً فى الألسنة ؛ وكان له بيان ينبَثُّ من طبعه المصقول كالشعاع الذى تُواميضُكَ به المرآة إذا انقدحتْ جَمْرةُ الفلَكِ عليها [2] .

---

(١) قال الراغب : كل موضع ذكر فى القرآن (وما أدراك) فقد عقب ببيانه : نحو (وما ادراك ماهيه ، نار حاميه) ؛ وكل موضع ذكر فيه (ومايدريك) لم يعقبه بذلك : نحو (ومايدريك لعل الساعة قريب) . قلنا : وهذا من ادق معانى الاعجاز ، فان (أدراك) صيغة الماضى ، والماضى مكشوف معروف لأنه وقع ، ولكن (يدريك) صيغة المستقبل ، والمستقبل محجوب ، فتأمل وكرر النظر ، فان المقام لايتسع هنا

(٢) كناية عن الشمس ، وتواميض : تبرق

وكان له عقل لو وُزن فى رُجحانه لَعُدَّ بين العقول من موازين التاريخ، وقلبٌ إن يكن فى جنبيه كالقلوب التى وضعت على منحدر المعانى الأرضية فإنه كان دون القلوب على مهبط السماوات (١)

رجل لم يُخلق من قبل زمنه؛ لأن الأقدار المصرّفة ذخرته للقرن الرابع عشر تجعله وأصحابَهُ النهضةَ الثالثة فى الإسلام (٢)، وكتبت له أن يكون الكنزَ الثمين الذى يُفجأ العالم بانكشافه؛ ليعود القديمُ المبدَعُ الذى كاد يُنسى فيتمكنَ فى الأرض بأسلوب جديد. وما يدريك، لعل هـذا الحكيم الفذ فى علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون التمثالَ العقلى المشرف على الأجيال، يفصل فى تاريخ الاسلام بين ثلاثة عشر قرنا مضت وثلاثة عشر قرناً تأتى؟

ولقد كان فى تفسير كتاب الله رجلا وحده، على بُعد عصره من فجر الإسلام؛ فكان يحمل فى رأسه ذهناً كآلة اللاسلكى، تهبط عليه من أقاصى الدهر شرارة النبوة، فإذا تكلم فى آية رأيتَ كأنما تتكلم الآية نفسُها على ملإ العقل بن مشارق الأرض ومغاربها

ولست أدرى على أى روح نبَت هـذا الرجل، ولكن

---

(١) ليس همه إلا المعالى ومصالح الخلق

(٢) نهضة الأخلاق زمن الصحابة والتابعين، ثم نهضة العلم من بعدهم، ثم نهضة العقل الاسلامى التى كان يدعو اليها الشيخ رحمه الله

الذى أعرفه أنه حين أثمر فتضج فَحلَا ، أذاق الناس من ثمره طعمَ معجزة الفكر العربى

* * *

نظرتُ إلى عينيه ذات مرة فخُيّل إلىَّ أن فيهما رهبة الأسد حين يجلّى بنظرة كبريائه [1] ليدلَّ على أنه الأسدُ لاغيرُه ، فمددتُ النظر إليهما ، فإذا روْعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا ، وإذا أنا ألمح فيهما ذلك الشعاع الغريب الذى ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السر الكامن فى المعقول والسر الكامن فى العقل ؛ وكأنه استشعر ذلك فتبسم ، فكان لنظرته جلال سماوى رحيم أشرق على نفسى كما تُشرق على روحِ الطفل ابتسامةُ أصله الإنسانى كان منطوياً على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها فى عينيه وينتشر على ماحوله ، فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل ولكن مع النفس العالية التى هى فيه [1] ؛ وكان أعظمَ هيبة من الملوك ؛ لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب

---

(١) أى يرفع بصره وينظر نظرته الشديدة

(٢) قابلت الشيخ (رحمه الله) فى الجامع الأزهر مرة من المرات ، واستأذن عليه طالب من نوابغ العلماء وأذكيائهم ، فلما مثل بين يديه وقف كما يقف المصلى : واضعا يديه أسفل صدره ، راميا ببصره إلى الأرض ، وتكلم كالمتاجى المتضرع حتى فرغ وانصرف . فأعظمت ذلك ، ولما خرجت لحقت به وكلمته فيه ، فقال : وأنا أنكرت من جلوسك إلى جانب الشيخ تلك الجلسة ماأنكرت أنت من وقوفى على تلك الهيئة . لو تعلم أن أحدنا لا يقف أمام هذا الرجل إلا كما يقف العالم إزاء كتاب نادر مضى يفتش عنه عدة سنين فلما رآه سجد لله شكراً وأنت تحسبه يسجد للكتاب ... !

والأسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم ، أما الشيخ فكنت تراه حيث رأيته كالمحراب حيث يكون : لا يقف عنده إلا من وقف ليتخشع ، وما ذكرته إلا ذكرتُ قول القائل : فى هذه الصورة الآدمية آدمُ والملائكة له ساجدون !

* * *

كان هذا الإمامُ الفذ فى قوة من ربه كقوة الجبل : يحمل مايحمل ولا يتلوى ؛ وفى سعة من طبعه كاستفاضة البحر : يغمر مايغمر ولا يتغير ؛ وفى صراحة من نفسه كاستطارة النهار : يطلع كما يطلع ولا يخفى ؛ فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء ، وهو جسم لكنه عضلة من عضلات الطبيعة ، وهو إنسان لكنه حقيقةٌ من حقائق الكون .

يصفه الناس بأنه الرجلُ الحكيم الذى أُوتىَ سر الحكمة ليُنبِغَ به ، ويصفه التاريخ بأنه الحياة المجددة التى وُهبت سرَّ العظمة لتعمل لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسِّر الذى اتصل به طرَفُ السر الأعلى ليتكلم عنه وليعمَل له ولينبغ فيه .

إذا كان فى بعض جوانح الأرض أمكنةٌ نادرة مقدسة هى قلب الدنيا الذى أودعه الله سرَّ النأْله ، ففى بعض جوانح الناس قلوب نادرة هى كتلك الأمكنة ؛ ولقد كان العالم الإسلامى كله يتصل من قلب الشيخ العظيم بمنسكٍ [1] فيه معنى كمعنى الكعبة

(١) مناسك الحج : عباداته ، وكذلك مواضع العبادات

إذ تُولّى شطرَها كلُّ وجوه المؤمنين

* * *

وأما بعدُ فكأنما أفرط عليَّ القلم فيما كنبت عن الحب ؛ فإنه يخيل إليَّ الساعةَ أن روح شيخنا الجليل تريد أن تغسل هذا الكتابَ كله وتدعه ورقاً أبيض [١] ويخيَّل إليَّ كذلك أنى كنت ماضياً فيما أكتبه كما تَتَعكَّس الأفعى [٢] فى مشيَتِها ، إذ يندفع فصفُها ليجر النصفَ الآخر ، فلا تدرى إن كان آخرها معلَّقاً بأولها أو الأولُ هو معلق بالآخر

وكذلك كنتُ أكتب ، فمرةً أجد الفكر يجرُّه القلبُ جرا ، ومرة أجد القلب ينسحب للفكر ؛ وبين ظَهْرَىْ ذلك [٣] أرانى ساعةً مُمْتَلِخ القلب ، وساعة مُدَلَّه العقل [٤] كأنى لم أحب إلا لأتحول رجلا شاذاً تراه فى الحب والبغض وفى الصواب والخطأ وفى الفكر والحِس — على حدّ مما يُعرَف وحدّ مما لا يُعرف ؛ فليس كله من هذا ولا كله من ذاك ؛ وهو محب إلا أنه يُبغض ،

---

(١) لما انتهيت إلى هذا الموضع من الكتابة وفرغت من صفة الشيخ ، دهمتنى فجأة من فجآت المرض أنستنى بأيامها كل ما كنت أريد أن أخطه فى هذا الفصل ، وكسرت حدة نفسى وهيأتنى تهيئة جديدة لكلام جديد ، فكان هذا من أعجب ما اتفق

(٢) تعكسها : أن يتراجع بعضها على بعض فى انسحابها

(٣) أثناء ذلك ، تقول : هو يتكلم ويعمل كذا بين ظهرى ذلك ، أى فى أثناء الكلام

(٤) أى ذاهبها .

ومبغض لـكنه يحب... !

إن زَفْرَةً من جهنم ونفحة من الجنة جاءَتَا إلى هذه الدنيا فرأتا من خُبث الناس بِدْعاً مُبْدَعاً [١] حتى لا يَخْلُصون بأعمالهم إلى جنة ولا نار ، فلا هم أهل هذه وحدها ولا أهل تلك على حِدَة ؛ فاختلط نفس الجنة بزفير النار وامتزجا حراً يستوقد الضلوعَ ببرد تَثْلَجُ عليه الصدور ، واجتمعا نعيما ببؤس وراحة بتعب وسروراً بهم ، ثم وقعا فى القلوب معاً فاذا هما الحب !

كذلك توحى إلىَّ روح الشيخ

أنت ياهذا إن أحببتَ امرأة فهى كما تُثير كلَّ مافيك من الكمال تُنبّه كلَّ مافيك من النقص ، بَيد أنها تجعل هذا النقص عُلْوِيا وهو أفسدُ له ، كالزوبَعة إذ ترفع من الأرض خَلفاً مارداً من الغبار ملتفاً بالنور ذاهباً إلى السماء ؛ فيكون ارتفاعُ الغبار شرا طائراً لم يكن فى الغبار الساكن . . أفتحسَبُ أن حبك إياها هو الحب ؟ كلا بل هو بادئ الأمر حبُّك أن تُعجَب بك ، ثم يزيد فاذا هو الحبُ أن تميل إليك ، ثم يبلغ فاذا هو حبك أن تخضع لك ؛ هذه ثلاثُ كلهن مَفْسدَة ، فإن هى أدّت فى رجل واحد من الانسان إلى فضيلة واحدة أدت إلى ألف

---

(١) أمراً غريبا

رذيلة فى ألف رجل من هذا الحيوان [١]

كل شىء يمكنك أن تضع ضميرك فى أوله فتمضىَ فيه على بصيرة ، إلا هـذا الحبّ ؛ فان ضميرك لايأتى موضعهُ فيه إلا آخراً : فاذا أنت أردت أن يحكم قلبك على من تحبها ، وأن تأخذ عليها حكم قلبها [٢] ، فإنما تريد بنفسك الألَم لاالحب ، تريد أن تستوحى الدموعَ وتُخرج منها كلاما يبكى ، تريد أن تزْدَرِعَ شجرةَ الجنون التى ينبت فيها زهر الشعر ! . . . وهـذا لايسمى حبًّا لحبيبة ، ولا يؤْمَن إلا على كبار الحكماء ، كالا يُؤمن فحص الآلة المُهلِكة . . . إلا على كبار العلماء والمخترعين !

أنت ياهذا إن أحببت خاضعٌ لقلبك ، ولـكنك أنت وقلبك سائران فى طريق قلبها . . . يقول كل محب فى حبيبته : لاهىَ إلا هىَ . أفلا يدل ذلك على ضلال الحب وإفساده مَلَكةَ التميز وأنه شىء من الخَبَل يَعْتَرِى فكرة بعينها فى العقل ويُخرجها إلى الهَوَج والبلَه ؟ وإذا ساغ لكل محب أن يقول فى صاحبته : لاهى إلا هى ، فمعنى ذلك أن (الهيَات) . . . كلّهن عَبث وباطل ، وتكون الحقيقة الطبيعية التى يُصَرّح عنها هذا القياسُ ، أن كل (هِىَ) مثلُ كلّ (هِى) فى الواقع ، ولا انفراد لها إلا فى عقل مجنون لامِساكَ له

---

(١) كان أكثر زجر الشيخ لأحد أن يقول : « ياحيوان ! » فيوبخ ولا يقول إلا حقاً

(٢) أى لايحكم قلبها عليها إلا بما أردت أنت

من المنطق ولا عبرة به فى القياس

من أعجب الأمور أن الصفات التى يعدُّ بها الانسان إنساناً تخضع كلها أحياناً لصفة واحدة من تلك الصفات التى يُعد بها الإنسان حيواناً ؛ فإن خدعك بائع مثلا فى دراهمَ معدودات ، لا تُمْضِ الأمر على أنه خدعك ، بل تعرف أنه غشَّك ، ثم لا ترى أنه غشك ، بل ازدراك ، ثم لا تقول إنه ازدراك ، بل تَهزأ بك ؛ وهذه حركة النفس فى اندفاعها إذا تُركتْ تندفع وتَركت المعانى الغضبية تخوض فى دمها

ومن ثَم فلا يكون البائع فى رأى نفسك قد سلبك بعضَ الدراهم ، بل شيئاً من القوة التى بها حَوْلُك وحيلتُك ، ومن الذكاء الذى تعامل الناس عليه ، وسلبك بعضَ الشأن الذى يجعلك رجلا ذا بَصَر ومعرفة ؛ وعلى قَدْرِ مايتحرك من ذلك فى نفسك يتحرك من الغيظ والحِقْد إن كنتَ رجُلا داهية ذكياً ، وبخاصة إذا رأيت البائع لايبالى أن تعرف أنه تَغَفَّلك ، بل يجعل من همِّهِ أن تعرف ذلك ؛ فلا تعود الدراهمُ أشياءَ كما هى فى نفسها من ضعف الخطَر والقيمة ، بل كما هى فى نفسك مما وُضِعَ أمرها عليه ؛ فلا تنحطُّ قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس ، وتلتحق بمعانى القهر والغلَبة وما كانت إلا من بعض معانى الربح والخسارة .

وعلى هذا المثل يقاس أمرُ الحب ونكده وجنونه ؛ فما هو

على قدر المرأة ، ولا بمقدار مما تعطيه ، وإنما هو استخذاء المعانى الإنسانية وخضوعها لصفة حيوانية واحدة ينصرف كل مافى هذا الإنسان إليها ؛ والأمر بعدُ كما قال أحد الأطباء فى تعليل الجوع إذ قال : إن المعدة متى خَوَّتْ [١] وفرغت من طعامها الذى كان فيها بعثت أعصابُها الباطنة برسائلها العصبية إلى ساقةِ المخ ، [٢] وإلى مركز الأعصاب فى العمود الفقرى ؛ تُؤذن بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر . قال : فتترجم مراكزُ الأعصاب السُّفلى هذه الرسائلَ إلى جوع . . .

وقل أنت مثل ذلك فى القلب ، فإنه متى وقعت امرأة من حاجته موقعاً ، ظمئَ إليها ، فأرسل رسائله العصبية إلى المخ بأنه من الواجب . . . إطفاءُ هذا الغليل المحرِق ، فتترجم مراكزُ الأعصاب هذه الرسائلَ إلى حب . . . !

وأنت أعلى عيناً [٣] بأن هذا كله نقلٌ للدعانى الحيوانية إلى اللغة التى تحرك النفس فتُلجئها إلى تسخير قُوَاها فى دفع الألم إن كان حقيقة أو خيالا ؛ فإذا أضلّك أمرُ الحب وضقت به وعجزت أن تصرف القلب عن رسائله ، فاشغل العقل عن ترجمتها ، وأحكِمْ

---

(١) أى خلت ، والخواء (ويقصر) : خلو الجوف من الطعام

(٢) الجزء الخلفى منه

(٣) أى أبصر بذلك وأخبر

معاقدَ هذه الخيالات ومقاصدَها ، وازْدَرِ تلك الحيوانيةَ ، وأبق الدرهمَ على قيمته . . . ولا تحسبَنَّ المرأة مُعْطيةً أكثر مما فيها ، ولا تتوهمنَّ أحسن مايبدو لك منها إذا سَحَرَتْ به على عينك إلا صورةً مسحورة من أقبح مافيك أنت ؛ فإن قرَّرْت فى نفسك هذه القواعد ، وأجريتَ عليها مايترجم لك العقلُ من رسائل القلب ، جاءك من هذه الرسائل الحكمة والفلسفة والكبرياء والأنَفة ، أو الصبر والأناة ؛ وخُضْتَ الغمرةَ [1] بذراعين فيهما السباحةُ والنجاةُ لاالاختباطُ والغرق !

كذلك أوحت إلىَّ روح الشيخ !

* * *

فى منطق الحِسِّ : متى وُجدت الأسباب جاءت النتيجة من تلقاء نفسها ؛ لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدماً ، فاحذف الأسباب تسقط النتيجة ؛ ولكن الأمر عكس ذلك فى منطق الحب : احذف النتيجة تسقط الأسباب كلها ؛ فإنك إنْ لا تفكر فى لذة ترجوها أو تحرص عليها ، نسيك الحبُّ قبل أن تنساه ؛ وهل علمت قطُّ عجوزاً تُعشق لأنها عجوز ليس فيها إلا حُطامُ العمر ، أو عرفتَ إنسانا يحْدُس عليها ظنا من ظنون الحب أو يصل بها سببا من أسباب المَطْمَعة ؟ أما إن هذه الفانية منطق

(١) اللجة ومكان التيار

سقطت نتيجته فلا يمكن فى الطبع أن تقوم أسبابها ؛ فإذا أنت محقت النتيجة وخيالها لم يبق بينك وبين المرأة ماسّة [١] منك أو منها ، واستحالت إلى منظر من مناظر الجمال يُفهمك أو يُلهمك أو يفسر لك ، فلا تنزل منها منزلة الرجل ، بل منزلة الفكر ، ولا تكون هى منك بمقام المرأة ، بل بمنزلة المعنى !

المصائب والنساء ، من شقاء الشقىّ أن يبالغ فيهن ؛ فإن ماينالك من خوف المصيبة ليس منها ، ولكنه منك ، وما يُذهلك من حب المرأة ليس فيها ، ولكنه فيك ؛ فأنت من ذلك كالذى ينحت صنماً من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة والرهبة من نفسه ، فإذا القدرة كلها قد استفاضت عليه ، وإذا الحجرُ الذى لا يملك ولا حشرة من حشرات الأرض قد تملّكَ رجلا بعقله وقلبه وحواسه وحيزه من الدنيا ؛ وإذا هذا الرجلُ يتعبّدُ بحقيقته لخياله ، وبعقله لوهمه ، وبعلمه لجهله ، وبما يَصدق فيه لما يكذب عليه ؛ ويبقى الحجرُ حجراً ولا يبقى الرجلُ رجلا ؛ وكذلك يصنع عاشقُ المرأة بالمرأة ، وهى عندنفسه كأنما نَبَتَ جسمُها على روح صنم معبود ؛ يحسب فيها السماء والجنةَ ، وما فيها أكثرُ من امرأة ؛ ويكون منها فى الحب والرضا كحجر الألماس : يلقى عليه الضوءُ لوناً واحداً فيخرجه من قلبه ألواناً ذواتِ عدد فى بَريق و بَصيص ، وفى البغض

(١) اى صلة وشابكة

والنفرة كالجسم المحترق : تحوّل كله ناراً من شرارة أو جرة أو شعلة ، وهو فى كلتا الحالتين يُسر ويألم بمادّته كلها لقليل طرأ عليه من مادتها هى ، فهى شىء واحد ولكنها بمادته تنقلب جمالا ملءَ عينه ، وفتنةً ملءَ صدره ، وفكراً ملءَ عقله ، وكذا وكذا مع هِنٍ وهِنٍ وهِنَات (١) .

إنما هذه سبيل اللذات فى الأنفس المريضة التى تَزْدَلِفُ بما فيه لذتها إلى ما فيه هَلَكتها ، ولا تُكسبها اللذةُ شعوراً إلا لتسلبها شعوراً غيره ، ولا تهيج فيها خيالا إلا لتطمس به على حقيقة ، ولا تبْتعث حرصاً إلا لتغلب به على قَصْد ؛ فالخمر فيمن يُبتلَى بها تسلب الشعور بفضيلة العقل ، لتُنشئ اللذاتِ الخياليةَ التى هى من بواعث الجنون ؛ والمال فيمن يحرص عليه يَستلب الشعور بفضيلة الخُلق ، ليُحدِث له اللذاتِ الوهميةَ التى هى من بواعثِ السقوط ؛ والمرأة فيمن يُمْتحن بها تنتزع الشعور بفضيلة التمييز ، لتُؤتيه اللذاتِ الغريبة التى يكون منها الجنون والسقوط ، ضَرْب من هذا وضربٌ من ذاك !

ولن تجد كل جرائر الحب إلا متفرعة من هذين الأصلين ؛ فهى بجملتها داخلة فى باب سلب العقل بعضه أو أكثره ، وفى باب سلب الخُلق بعضه أو كله .

وفى النفس الانسانية لا تمرض الحقيقة إلا من سوء التخيل فيها ، كأن نعمة الخيال إنما وُهبت للإنسان لتُخرجه من حدود الحقائق

(١) أى مع كذا وكذا وامور أخرى مما يمكن أن يكون

فيُفسدَها ويفسد آثارها فيـه ، فتنقلب من مادة شقائه وهى مادة سعادته ! . . . فالخيال هو القوة التى يثب بها الإنسان إلى المجهول ، وهو نفسُه القوة التى يسقط بها إذا تقاصرت الوَثْبَة أو طاشت ؛ وقلما جاءت إلا من هاتين ، والخيال هو العنصر الذى تمزجه بالحقائق ليُحدث فيها التنويعَ فيخرج ثلاث حقائق من اثنتين ، وهو نفسه العنصر الذى يستخرج الضررَ الكامن فى هذه الحقائق متى أسرف عليها فيُخرج من المنفعة الواحدة مضرَّتين : للحقيقة والإنسان معا !

فالمَنْهومُ الذى يلتهى بطنُه ولا تنتهى نفسُه[1] ، والحريصُ الذى يفرغ عمره ولا يفرغ أملُه ، والفاجر الذى تذهب مُروءته ولا تذهب لذته ، والمُدْمِن الذى يسقط عقله وخيالُه لا يزال يعلو ، والمقامر الذى لا ينفك يطمع فى الغنى وهو فقير حتى من الفقر . . .[2] كل واحد من هؤلاء مريض بمرض خيالى واحد ؛ أما الذى هو مريض بشىء من كل شىء ، فهو العاشق المريض بامرأة يهواها !

وهل فى شِقْوة الخيال وشدة غلوائه أعجب من خيال هذا العاشق ، إذ يرى الجمالَ المخلوق كلَّه لا يبلغ مبلغَ القبلة الأولى التى لا تزال فى شفتى حبيبته لم تُخلق بعدُ ؟

المرأة فى النساء امرأة ، كالواحد فى العَدَد واحد ؛ بَيْد أن خيال العاشق يَرقم إلى هذا الرقمِ الفَرد صفا طويلا لا يراه أحد

---

(١) يمتلئ بطنه ولا يزال يشتهى (٢) المراد أنه نزل من العدم والحاجة منزلة قد يكون فقر الفقراء عندها شيئا يسمى يسراً

غيره ، فالواحد اسمه واحد ومعناه ملايين كثيرة ... وبهذا يصبح العاشق مع المرأة الخياليَّة كالنَّسر حطمت مخالبه وصدِعَ منقاره ونُسِل جناحاه ، فاسمه نسر ومعناه دَجاجة ... !

أف للشعر ! يعلو بالأشياء كلها علوّ الأسرار الإلهية التى فيها ، ويعلو بالشاعر على كل الناس ، إذ كان فيه من روح الله أكثر مما فيهم ؛ ثم لايكون عقابه على هذا التأله إلا أن يرمى بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمى امرأة إن كان فى الشاعر روحُ رجل تام ، أو بين سَفِلَة الخلق وسفاسِف الأشياء ، إن كان الشاعرُ مؤنَّثَ النفس أو ساقطها

آه آه ! إن الله لا يُنَعِّم قلبا فى الدنيا على أسلوب النعيم فى الآخرة ، ولكنه ترك للناس أن يعذبوا أنفسهم هنا على نحو مما هنالك ، فكلما طفِئَت لهم نار أوقدوا غيرها يحترقون فيها ليذوقوا العذاب لا ليموتوا !

إن لنار الآخرة سبعة أبواب ، وكأن كل باب منها ألقى جمرة على الأرض ، فبابٌ ألقى الوهم ، وآخرُ قذف الخوف ، وثالث رمى بالطمع ، والرابعُ بالحرص ، والخامسُ بالألم ، والسادسُ بالبغض ؛ أما السابع فرمى بالشرّ الذى يجمع هذه الستة كلها ، وهو الحب !

النار فى الآخرة ، ولكن أرواحها فى الناس لتَسُوق أرواح الناس إليها !

تم

DATE DUE

892.74:R13A:c.1
الرافعي، مصطفى صادق،
السحاب الاحمر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039143
A.U.B. LIBRARY